أبو الحسن الندوى

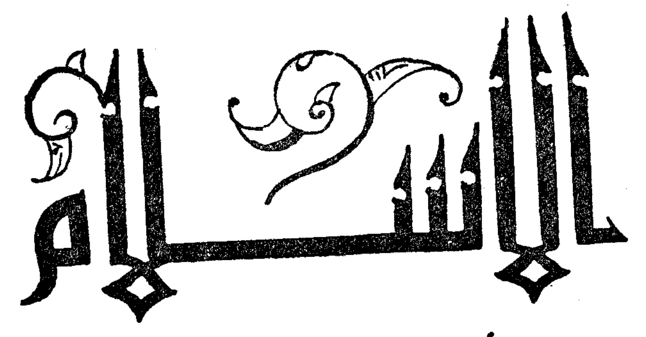
الإسلام

أثره فى الحضارة
وفضله على الإنسانية





أبـو الحســن النـدوى



أثـره فى الحضـارة وفضـله على الإنسانية

بحــث تاريخى وتحليلى لآثار الإسلام
والبعثة المحمدية فى الحضارة الإنسانية ،
استعراض منصف ، ودراسة مقارنة ،
وبحث علمى محايد ، وتصوير الواقع

أبو الحســن الندوى

الإســـــــلام
أثــره فى الحضـــارة
وفضله على الإنسانية

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا الـكتاب

(بقلم مؤلفه)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده !

أما بعد ، فإن كاتب هذا المقال وجهت إليه دعوة من المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، التـابع لوزارة الإعـلام فى الكـويت ، لإلقـاء محاضرة على موضـوع « الإسلام والحضارة الإنسانية » بمناسبة بدأ القرن الخامس عشر الهجـرى الذى احتفل بـه فى مختلف أنحاء العـالم الإسلامى بطرق متعددة وألوان مختلفة (١) وقد صادف هذا

(١) كان من ضمنها الاحتفال الذى عقدته المنظمة الإسلامية للطلاب فى ٢٢/ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ هـ فى قاعة المحاضرات الكبرى فى عاصمة الولاية الشمالية (لكهنؤ ــ الهند) وكان من آثاره ومخلفاته المفيدة الباقية ، حديث كاتب هذه السطور نشر بعده بعنوان « القرن الخامس عشر الهجرى الجديد فى ضـوء التاريخ والـواقع » فى اللغـات الثلاث الأرديـة ، والعـربية والانجليزية ، وكان له صـدى وتلق كريم فى الأوساط الدينيـة والعلمية .

الاقتراح تجاوباً نفسياً وفكرياً فى نفس الكاتب ، لشعوره بأهمية هذا الموضوع وجديته ، ولاشتغاله بالبحث والكتابة فيما يتصل بهذا الموضوع ويساعد على التوسع فيه ــ إذا دعت إليه الحاجة ــ والتركيز عليه ــ إذا طلب منه التركيز ــ قراءة وكتابة ، وتأملا وتفكيراً ، فقبل هذه الدعوة الكريمة الهادفة التى جاءت من بلد إسلامى عربى ، وأعد لذلك بحثاً فى مقدمة قليلة وعلى تزاحم من الأشغال وتتابع من الرحلات والتنقلات •

ونظمت الحفلة وزارة الإعلام فى الكويت ، وألقيت المحاضرة على مدرج كلية العلوم فى جامعة الكويت بالخالدية ، مساء يوم الأربعاء ١٨ صفر ١٤٠٤هـ ٢٣ نوفمبر ١٩٨٣م ، حضرتها الشخصيات البارزة وكبار العلماء المثقفين فى البلد ، وقرىء أكثر هذا المقال فى حفلة كبيرة أيضاً فى نادى مكة الثقافى سلخ صفر ١٤٠٤هـ (٦ من ديسمبر ١٩٨٣م) وطبع فى مجموعة « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين » (٢) •

ولكن المقال ــ على ما جاء فيه من أسس قوية صالحة ، ولفتات منيرة مثيرة فى الموضوع ــ يغلب عليه الطابع الارتجالى والاستعراض السريع بما يتصل بهذا الموضوع بنسب قريب أو بعيد ، لضيق الوقت وانشغال الخاطر •

---

(٢) ص/ ٦٣ ــ ٨٠ ، طبع دار عرفات ، رائى بريلى ــ الهند •

ثم جاءت الكاتب دعوة مـن الأمانة العامة للمـؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية المزمع عقده فى رحاب الأزهر الشريف فى القاهرة ، ومعها قائمة الموضوعات المقترح تقديمها لهذا المؤتمر ، ومن ضمنها « أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية » فحركت هذه الدعوة وهذا الموضوع المقترح الرغبة فى التوسع فى هذا الموضوع ، وشغل الخاطر بعد ما كان الكاتب قد انتهى من التفكير فيه ، وملك عليـه فكره وأعصابه واستحوذ على مشاعره ، شأنه فى مثل هـذه الموضوعات والأغراض الكتابية ، فبدأ يدرسه مـن جديد ، ويضع له العناوين الجانبية ، وفى شرح جوانب ومجالات فى حيـاة الأمم والشـعوب والحضارة ظهـرت فيها التأثيرات الإسلامية فى أجلى أشكالها ، وفى بيان المعطيات الهامة والمنح الأساسية للإسلام والبعثة المحمدية ، مورداً مواد جديدة ، ودلائل قوية ، وشهادات أجنبية ، حولت المحاضرة من مقال يكتب على عجل ، إلى رسالة مدروسة ضافية ، وبحث علمى تاريخى ، يسترعى انتباه الباحثين والمنصفين من المسلمين وغير المسلمين ، ويستحق أن ينقل إلى لغات أجنبية ويقـدم إلى الطبقة المثقفة المتهيئة لقبول الحق والواقع ، وشهادات التاريخ واعترافات الفضلاء الأجانب ، وأقطاب الفكر والبحث فى العالم الغربى وفى شبه القارة الهندية .

ولم يتحاش الكاتب ولم يمنعه التواضع ، عن أن ينقل

ما صدر عن قلمه فى بعض جوانب هذا الموضوع فى كتاباته السابقة وفى بعض مؤلفاته ، إذا رأى أنه قد وفى الموضوع حقه ، ولا يستطيع أن يأتى بأحسن منه ، فإن كل كاتب ومؤلف يجرب « نفحات » لا يقدر عليها فى كل وقت وفى كل مكان ، ولا يعاب كاتب أو مؤلف على أن يستعير من نفسه لنفسه ، ويقتبس من كتاباته ومؤلفاته ما يشاء •

وقد يجد القارىء المتتبع لكتابات كاتب هذه السطور ومؤلفاته مقتطفات قد قرأها فى كتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أو « السيرة النبوية » فضلا عما جاء فى مجموعة « أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين » ولكن عملية التركيب والمزج والاقتباس والنقل ، قد جعلت هذا الكتاب الصغير كتاباً جديداً مستقلا بنفسه ، له شخصية كتابية متميزة ، منسجمة مزدوجه ، متركبة موحدة •

ولما بلغ الكاتب خبر تأجيل المؤتمر الدولى الرابع للسيرة والسنة النبوية الذى كان من دواعى إقبال المؤلف على هذا الموضوع من جديد ، وذلك من غير تحديد للميعاد ، رأى أن ينشر هذا الكتاب لما فيه من مادة للتفكير ، ومدد للعاملين والمشتغلين فى مجالات الدعوة ، وباعث للكتاب والباحثين ، الذين أكرمهم الله بسعة من العلم ورحابة فى الصدر ،

وشجاعة فى الاعتراف بالحق على التوسع فى هذا الموضوع ، والوفاء له بجدارة واستحقاق ، وقد أسـمينا هـذا البحث الموسع ـ الذى أصبح أضعافاً مضاعفة بالنسبة إلى المقـال الأول ـ «الإسلام ، أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية» ـ وعلى الله قصد السبيل •

أبو الحسن على الحسنى الندوى

الإســـلام

أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين •

سعة الموضوع وعالميته :

إن موضوع « الإسلام وأثره فى الحضارة » موضوع واقعى حيوى ، ليس وثيق الصلة بالبعثة المحمدية ورسالة الإسلام وتعاليمه فحسب ، بل بواقع الحياة وحاضر الإنسانية ومستقبلها ، ودور الأمة الإسلامية فى بناء الحضارة وتوجيهها كذلك ، والموضوع أليق بعمل مجمعى منه بمجهود فردى ، فإن الموضوع بطبيعته عالمى إنسانى يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة ، فالمساحة الزمانية تمتد من القرن الإسلامى الأول إلى هذا القرن الذى نلتقى فيه ، والمساحة المكانية تمتد من أقصى العالم إلى أقصى العالم ، والمساحة المعنوية تمتد من مجال العقيدة إلى مجال الأخلاق والسلوك ، ومن مجال الاجتماع والحياة المنزلية والفردية ، إلى مجال السياسة والتشريع والقانون ، وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ،

ومن مجال أنماط المدنية الراقية ، إلى مجال الفن المعمارى والأدب والشعر ، والذوق الرفيع .

وكل مساحة من هذه المساحات مساحة واسعة ، ذات جوانب عديدة فسيحة ، فلا يفى بحق هذا الموضوع إلا مجمع علمى مكون من أساتذة بارعين أصحاب الاختصاص فى مادتهم التى لها اتصال وثيق بهذا الموضوع الذى ينوء بالعصبة أولى القوة فى العلم والدراسة ، الأمينة النزيهة فى الحكم على الأشياء ، الجريئة فى إبداء الرأى والنتائج العلمية ، فيقوم أحد الأساتذة بجانب العقيدة والتفكير الدينى ، ويقوم آخر بجانب الاجتماع ، والثالث بجانب التشريع والقانون ، والرابع بمبدأ الحرية والمساواة ، والخامس بحقوق المرأة ومنزلتها فى المجتمع ، وهكذا يتضح أن هذا الموضوع أجدر بموسوعة خاصة فضلا عن كتاب ، فضلا عن بحث يعد فى وقت قصير وعلى تشتيت بال وتزاحم أشغال ، ولكن كما قال الأولون : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ولا أبلغ من قول الله تعالى : « فإن لم يصبها وابل فطل » (١) .

أصعب العمليات وأدقها :

إن من أصعب العمليات وأدقها هو تحليل الحضارة التى اختمرت ، تحليلا كيمائيا وفرز العناصر التى دخلت فيها فى عهود مختلفة ، وفترات تاريخية معينة ، وإرجاعها إلى

---

(١) سورة البقرة ٢٦٥ .

أصلها ومصدرها ، وتحديد مقاديرها ومداها من التأثير والقبول ، وتعيين من يرجع إليه الفضل فى هذا العطاء الحضارى والتغيير الجذرى ، فقد دخلت هذه العناصر والتأثيرات فى الهيكل الحضارى والمجتمع البشرى وتغلغلت فى أحشائها وجرت منهما مجرى الروح والدم ، وتفاعلت وتكون منهما مزاج خاص بهذه الحضارة ، شأن عوامل التكوين والتربية والبيئة والأغذية فى حياة الفرد وتكوين شخصيته الخاصة ، وإلى الآن لم يخترع معمل كيميائى يباشر عمل التحليل التاريخى ، ولا مجهر (الميكروسكوب) (Microscope) يضخم هذه الأجزاء الدقيقة التى لعبت دورها فى تكوين الحضارة تكويناً خاصاً .

إذاً لابد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب والأمم والبلاد والمجتمعات ، حتى نستطيع أن نقارن بين ماضيها وحاضرها ونهتدى إلى عمل الدعوة الإسلامية والبعثة المحمدية فى تغيير العقيدة وإصلاحها ، والقضاء على آثار الجاهلية والفلسفات الوثنية والتقاليد الموروثة ، وتحويل التيار الفكرى من جهة إلى جهة ، والتغيير الثورى فى القيم والمثل وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين ، وذلك يحتاج إلى دراسات مضنية ، وإجهاد نفسى وعقلى ، ولكنه عمل مفيد ، إذا لم توفق له مؤسسة علمية كيونسكو (Unesco) أو مجمع فى أوربا وأمريكا بطبيعة الحال ، فلابد أن يخصص له مجمع علمى فى إحدى عواصم الشرق الإسلامى أو جامعة من الجامعات الإسلامية ، ولا شك أنه أنفع وأجدر من كثير من

الأعمال العلمية التى تضطلع بها هـذه المجامع والجـامعات وتجند لها طاقاتها ووسائلها •

صعوبة تحديد مجالات التأثير :

إن تحديد مجالات التأثير الإسلامى فى الحضارة الإنسانية صعب وغير عملى تقريباً ، لأن هذا التأثير قد اختلط بجهـاز الحضارة اختلاط الدم باللحم ، وعادت هذه الشعوب والأمم لا تشعر بهذه التأثيرات ولا يخطر ببالها فى حين من الأحيان أنها عناصر دخيلة أجنبية ، فقد أصبحت جزءا من أجـزائها وتفكيرها ، ومدنيتها وحياتها ، وهنا أستعير ما سبق أن قلته فى كتابى : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وأنا أتحدث عن المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الاتجاه البشرى •

التأثير العالمى العـام :

« صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات فى فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصـية الجافة ترق وتخشع ، وبدأت مبـادىء الإسـلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل فى الأحشاء ، وبـدأت قيمة الأشياء تتغير فى عيون الناس ، والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة •

وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من

الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم ، كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك فى فلسفتهم وفى دينهم وفى مدنيتهم وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عنه الحركات الإصلاحية التى التى ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين » (٢) .

عشرة معطيات هامة ومنح أساسية :

ولكن إذا كان لابد من تحديد جوانب ومجالات فى حياة الأمم والشعوب والحضارة ، ظهرت فيها التأثيرات الإسلامية فى أجلى أشكالها ، نحددها — على سبيل الاختصار والاختيار — فى عشرة من المعطيات الهامة والمنح الأساسية الغالية ، التى كان لها الدور الأكبر فى توجيه النوع البشرى وإصلاحه وإرشاده ونهضته وإزدهاره ، والتى خلقت عالماً مشرقا جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم فى شىء ، وهو كما يلى :

١ — عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ — مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية .

٣ — إعلان كرامة الإنسان وسموه .

٤ — رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها .

---

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٣٧ ، الطبعة الثالثة عشرة سنة ١٩٨٢ م ، دار القلم ، الكويت .

٥ — محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز فى نفس الإنسان •

٦ — الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة •

٧ — إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتفخيم شأن العلم والحث عليه ، وتوجيهه إلى علم هادف نافع موصل إلى الله •

٨ — استخدام العقل والانتفاع به حتى فى القضايا الدينية ، والحث على النظر فى الأنفس والآفاق •

٩ — حمل الأمة الإسلامية على قبول مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسئولية القيام بالقسط والشهادة لله •

١٠— الوحدة العقائدية الحضارية العالمية •

وتدخل تحت كل عنوان قصة طويلة ، واستعراض تفصيلى للحضارات والعصور الجاهلية التى سبقت البعثة المحمدية والإنسان الذى ولد بعد البعثة ، استعراضاً دقيقاً أميناً، وكل عنوان من هذه العناوين موضوع كتاب مستقل قد يمتد على مآت من الصفحات •

ونتناول هذه المجالات التى ظهرت فيها تأثير الإسلام الجذرى والثورى مجالا مجالا ، ونلقى بعض الأضواء على مدى تأثير الإسلام وتعاليمه الإنسانية العالمية •

١ — عقيدة التوحيد النقية الواضحة

نتناول منحة الإســلام الأولى ومأثرة محمد — ﷺ — الكبرى ، وهو أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصــافية الغالية ، فهى عقيدة ثائرة معجزة متدفقة بالقوة والحيــاة ، مقلبة للأوضاع ، مدمرة للآلهة الباطلة ، لم تنل ولن تنــال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة .

الشرك والوثنية وأثرهما فى حياة الإنسان :

هذا الإنسان الذى يحمل دعاوى فارغة ومزاعم جوفاء ، من الشعر والفلسفة والسياسة والاجتماع ، والذى اسعبد الأمم والبلاد مراراً كثيرة ، والذى حول الأحجار الصــماء أزهاراً عبقة فيحاء ، وفجر الأنهار من بطون الجبال ، والذى ادعى الربوبية أحياناً ، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع ولا تعطى ولا تمنع ، « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (١) .

وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه ويخافها ويرجو منها الخير ، إنه لم يخر ساجداً للجبال والأنهار والأشــجار

(١) سورة الحج — ٧٣ .

والحيوانات والأرواح والشياطين ، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب ، بل سجد للحشرات والديدان أيضاً ، وقضى حياته كلها بين هواجس ووساوس ، وبين أخيلة وأوهام ، وأمان وأحلام ، كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن ، والفوضى الفكرية والقلق النفسى وفقد الثقة وعدم الاستقرار •

وامتازت الهند — البرهمية بصفة خاصة — بكثرة المعبودات والإلاهات ، وقد بلغت الوثنية أوجها فى القرن السادس المسيحى ، فبلغ عدد الآلهة فى هذا القرن إلى ٣٣٠ مليون (٢) ، وقد أصبح كد شىء هائل وكل شىء نافع إلهاً يعبد •

عقيدة التوحيد وأثرها فى الحياة :

أعلن القرآن والرسالة المحمدية أن هذا العالم ليس بلا ملك ولا هو دولة مشتركة لعدد من الملوك ، بل له ملك واحد وهو خالقه وصانعه وحاكمه ومدبره ، له الخلق والأمر كله وله الحكم ، « ألا له الخلق والأمر » ولا يحدث فى هذا العالم شىء إلا بأمره وقدرته وإن العلة الحقيقية لوجوده هى إرادته وقدرته ، إن هذا الكون كله خاضع له فى كونه ووجوده ، ومنقاد له وطوع أمره « وله أسلم من فى

(٢) راجع « الهند القديمة » لمؤلفه آر ، سى ، دت
Ancient India, Vol. III P. 276 (1891) & L.S.S.O. Malley; Popular Hindusim — The Religion of Masses, Cambridge (1935).

السموات والأرض » وعلى المخلـوقات التى تملـك إرادة واختياراً أن تخضع له « ألا لله الدين الخالص » •

وإن الأثر العقلى الأول الذى يترتب من هذه العقيدة على الإنسان هو أن العالم كله تابع لمركز ونظام واحـد ، ويرى الإنسان فى أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهـراً ووحدة فى القانون ، ثم بعد هذه العقيدة يسـتطيع الإنسـان أن يأتى بتفسير كامل للحياة ، وأن يقوم فكره وعمله فى هذا الكـون على حكمة وبصيرة •

فأغنا — ﷺ — الإنسان ، بعقيدة صافية نقية سـهلة سائغة ، حافزة للهمم ، باعثة للحياة ، فتخلص من كل خوف ووجل وصار لا يخاف أحداً إلا الله ، وعلم علم اليقين أنـه وحده هو الضار والنافع ، والمعطى والمانع ، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر •

فتغير العالم كله فى نظره بهذه المعرفة الجديدة والاكتشاف الجديد ، وصار مصوناً عن كل نوع من العبودية والرق ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق ، وعـن كل ما يشتت البـال ويشوش الأفكار ، فقد شعر بوحدة فى هذه الكثرة ، واعتبر نفسه أشرف خلق الله وسيد هذه الأرض وخليفة الله فيها ، يطيع ربه وخالقه ، وينفذ أوامره ، ويحقق بذلك هذا الشرف الإنسانى العظيم والعظمة الإنسانية الخالدة ، التى حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد •

إنها البعثة المحمدية التى اتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة ـ عقيدة التوحيد ـ التى كانت مجهولة مغمورة ، مظلومة مغبونة ، أكثر من أى عقيدة فى العالم ، ثم ردد صداها العالم كله وتأثرت بها الفلسفات والدعوات العالمية كلها فى قليل أو كثير •

إن بعض الديانات الكبيرة التى نشأت على الشرك وتعدد الآلهة ، وامتزجت به لحماً ودماً ، اضطرت فى الآخير إلى أن تعترف ـ ولو بصوت خافت وهمسة فى الآذان ـ بأن الله واحد لا شريك له ، وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلا فلسفيا ، يبرئها من تهمة الشرك والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد فى الإسلام ، وبدأ رجالها وسدنتها يستحيون من الاعتراف بالشرك ويخجلون من ذكره ،وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها « بمركب النقص » والشعور بالصغار والهوان ، (Inferiority Complex) فكانت هذه التحفة أغلى التحف التى سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته ـ ﷺ ـ •

وقد أجاد أستاذنا العلامة « السيد سليمان الندوى » عرض هذه الحقيقة العقدية النفسية ودورها فى تربيةالإنسان وتوجيه المدنية ، يقول فى كتابه الجليل الطائر الصيت «سيرة النبى » •

« إن الأمم التى لا عهد لها بعقيدة التوحيد لم تكد تعرف معنى الإنسانية وكانت تعد نفسها فى عبودية خاضعة

لكل مظهر من مظاهر القوة ، وإن عقيدة التوحيد التى جاء بها محمد رسول الله – ﷺ – هى العقيدة التى استطاعت أن تحرر الإنسان من المخاوف التى كانت تسيطر على شعوره فأصبح بفضل هذه العقيدة لا يخاف أحداً إلا الله •

وقد خضع له مسخراً ما كان يعبده من قبل ويحسبه مصدراً أو ممثلا للقوة القاهرة الفعالة ، مثل الشمس والأرض والنهر والبحر •• وقد تلاشت لديه المهابة الملوكية والجلالة الحاكمية لبنى الإنسان ، فلم يبد آلهة بابل ومصر ، وآلهة الهند وإيران « والقائل : أنا ربكم الأعلى » إلا خدما للإنسان ، رعاة لمصالحه ، حرساً لأملاكه •

ولم تكن الآلهة تنصب هؤلاء الملوك وتخلعهم إنما كان الإنسان هو الذى يرفعهم ويضعهم •

إن المجتمع البشرى الذى كان يخضع لحكم الآلهة ،كان مجتمعاً ، فاسداً ، ممزقاً مفرقاً فى طبقات تحكمها التقاليد الجائرة ، جعلت من الإنسان من هو شريف ، ووضيع ، هذا ينتمى إلى طبقة عليا ، وذاك إلى درجة دنيا ، هذا خلقه « برميشور » (كبير آلهة الهند) من رأسه فأصبح شريفاً مخدوماً ، وذلك خلقه من قدمه فأصبح وضيعاً خادماً ،والآخر مخلوق من يد الإله الكبير فعليه أن يمثل الطبقة الوسطى من الناس •

وكان ــ طبيعياً ــ من جراء هــذه العقيــدة أن يكون المجتمع البشرى آنئذ مفرقافىطوائف وطبقات حسبالأنساب والسلالات ، يجهل أبسط معنى لمبدأ المســاواة الإنســانية والسمو البشرى ، ونيل الحقوق بالتساوى ، وما كانت الدنيا آنذاك إلا حلبة للمصارعات ، لمفاخر الفرق والطبقات .

ولما جاء الإسلام بدد الظلمات وعرف الناس لأول مرة عقيدة التوحيــد ، ومعنى الأخــوة الإنســانية التى رأبت التصدعات وأزالت المعايير المصطنعة ، وبهذه العقيدة أدرك الإنسان ما سلب منه حقه فى المساواة .

والتاريخ خير شاهد ما لهذه العقيدة من نتائج إيجابية فعالة ومدى تأثيرها فى عقلية الأمم والشعوب التى اعترفت ــ سواء رضيت أو كرهت ــ بفضل هذه العقيدة وإن كانت لا تزال تجهل جميع معانيها ونفوذها الواقعى فى تغيير الأقدار والمعايير ، إنها ــ أى تلك الشــعوب التى لا تؤمن بمبــدأ التوحيد ــ تفقد حتى زمننا هذا المبدأ الصادق للمســاواة الإنسانية فليس بكاف أنك لا ترى مظاهرها فى مجتمعاتهم ونواديهم فحسب ، بل إنك ستفتقد مظهر المساواة حتى فى معابدهم ، حيث يواجه روادها أسس إنزال الناس حســب منازلهم (البرتوكول) ولا شك أن المسلمين فى خير ، فقــد عرفوا هذا المبدأ منذ ثلاثة عشر قرناً ، بفضــل عقيــدتهم بوحدانية ربهم العلى القدير ، وقد تحــرروا من المعايــير المصطنعة والمستويات الموضوعية .

والناس عند الإسلام سواسية كأسنان المشط لا يفرقهم اللون أو الوطن ، ولا يميز بينهم القومية والوطنية ، وقفوا أمام ربهم وهم ساجدون ، أذلة خاضعون ، وإذا تعاملوا فى حياتهم فإذا هم شرفاء متساوون ، لا تفاوت بينهم إلا بالعمل « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) .

أثر عقيدة التوحيد الإسلامية فى الهند :

يقول الباحث الهندى المعروف (K. M, Panikkar) وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية فى عقلية الشعب الهندى ، ودياناته :

« من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية كان عميقاً فى هذا العهد (الإسلامى) ، إن فكرة عبادة الله فى الهنادك مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين فى هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى ، قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة ، وقد ظهر هذا التأثير فى الديانات والدعوات التى ظهرت فى الهند فى العهد الإسلامى كديانة (Bhagti) ودعوة كبيرداس » (٤) . (٥) .

---

(٣) السيرة النبوية للعلامة السيد سليمان الندوى ، ج ٤ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ (القطعة من تعريب الدكتور عبد الله عباس الندوى) .

(٤) شاعر متصوف ينتقد المجتمع الهندى ويدعو إلى الاصلاح ، اختلف الناس فى ديانته .

(٥) A. Survey of Indian History, P. 132.

وكذلك الشأن مع الفرقة التى تسمى السيخ (Sikhs) والتى لعبت دوراً خطيراً فى المجال السياسى والعسكرى والاجتماعى فى المجتمع الهندوسى العام ، فمما يثبت من تاريخ هذه الطائفة أن الغاية الرئيسة لنشوء هذا المذهب فى الديانة الهندوكية إنما كانت تطهير العقائد الدينية ، وأن منشىء هذه الديانة « بابا نانك » كان قد تأثر بتعاليم الإسلام وكان قد تلقى دراسته فى اللغة الفارسية والدين عن رجل مسلم معروف بالصلاح اسمه « سيد حسن » ، وكان موضع عنايته وعطفه،وقد ذكرت أسماء أخرى من شيوخه وأساتذته المسلمين ، يبلغ عددها إلى ستة أشخاص ، ويروى أنه زار الحرمين الشريفين ، وقضى أياماً فى بغداد ، وكانت له صلة خاصة بالشيخ « فريد » من كبار مشايخ الطرق فى بنجاب ، وكان «بابا نانك» يركز فى دعوته وتعليمه على عقيدة التوحيد والمساواة البشرية ، واجتناب عبادة الأصنام والوثنية (٦).

ويقول (Dr. Tarachand) فى كتابه « أثر الإسلام على الثقافة الهندية » (Influence of Islam on Indian Culture) محيلا إلى كتاب الديانة الهندية (Religion of India) الديانة الهندية لمؤلفه (Barith). •

« مما يجب تكرار التنبيه عليه : أن المدارس الدينية

---

(٦) ليراجع للتفصيل : Macauliffe : The Sikh, Religion
Seva Ram Singh : Life of Curu Nanak.

والفلسفية فى جنوب الهند كان كل كوحدة مقتبساً من النظم الفكرية القديمة،ولكن كانت من حيث المجموع أو الترجيحات الخاصة مرآة للأثر الإسلامى ، وتجعــل من المعقــول أنها تأثرت بالإسلام » (٧) .

أثر عقيدة التوحيد فى العالم المسيحى :

يقول الأستاذ « أحمد أمين » :

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإســـلام، من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثـــانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا (Septimania) (٨) حركة تدعـــو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن ليس للقسس حق فى ذلك وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم ، والإســـلام ليس له قسيســـون ورهبان وأحبار ، فطبيعى أن لا يكون فيه اعتراف » .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclast) ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى ، ظهر مذهبنصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصـــدر الإمبراطور

---

(٧) ص ١٠٧ .

(٨) سبتمانيا مقاطعة فرنســـية قديمـــة فى الجنوب العربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

الرومانى « ليــو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م ، يحرم فيــه تقديس الصور والتماثيل ، وأمراً آخر ســنة ٧٣٠ م يعــد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان « قسطنطين » الخامس و « ليو » الرابع ، على حين كان البابا « جريجورى » الثانى والثالث « وجرمانيوس » بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة « إيرينى » من مؤيدى عبادة الصور .

وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصــيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون: إن « كلوديوس » (Claudius) أسقف تورين (الذى عين سنة ٨٢٨م وحول ٢١٣ هـ)والذى كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتهــا فى أســقفيته ، ولد وربى فى الأندلس الإسلامية .

وكراهية الإسلام للتماثيل والصور معــروفة ، وروى البخارى ومسلم عن « عائشة » رضى الله عنها قالت : تــدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سترت سهوة لى بقرام(٩) فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال يا عائشة! أشد الناس عذابا يوم القيامــة الذين يضــاهون بخلق الله وقالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين » والأحاديث فى هذا الباب مستفيضة .

---

(٩) السهوة : النافذة بين الدارين ، والقرام : الستر .

وكذلك وجدت طائفة من النصارى (١٠) شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام » (١١) .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ، أما دعوة « لوثر » الإصلاحية التى ظهرت فى القرن السادس عشر المسيحى ،فقد ظهرت فيها انعكاسات خفيفة لتعاليم الإسلام ودوره فى الإصلاح ، كما تظهر انعكاسات لضوء الإسلام فى مكان بعيد تخرق أشعته الحجب الكثيفة الحاجزة ، من خضوع عقلية القرون المتوسطة للمثل القديمة ، وضغط الكنيسة ، كما يقول الكاتب المسيحى الفاضل (J. Bass Mallinger) (١٢) ولشدة نفوذ بولس (Paul) (A. D. 65 — 10) على النصرانية ، وخضوعها لأفكاره وتفسيره للعقيدة النصرانية كما يقول « أرنست دى بنسن » (Ernest de Bunsen) (١٣) .

وتنطوى البروتستانية التى تزعمها « لوثر » على أفكار تحريرية فى الأمور الدنيوية والدينية ، وكذلك فى إعطاء الفرد حرية التقدير ، والحكم على الأمور وفى التسامح الدينى ،

(10) Haine's Christianity & Islam in Spain, P. 116.

(١١) ضحى الإسلام ، ج ١ ، ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(١٢) راجع دائرة معارف بريطانيا ، مقال ج باس مولنجر عن « مارتن لوثر » .

(١٣) راجع كتاب :
Islam or True Christianity, Ernest Debunsen :

وهذا مضاد للتقليد ، وللسلطة الدينية ، والروح البروتستانية هى فى مسئولية الفرد تجاه الله وحده وليس تجاه الكنيسة .

لماذا أخفقت هذه الجهود ولم تأت بالنتيجة المطلوبة ؟

ولابد هنا من تنبيه على حقيقة خالدة أثبتها تاريخ الديانات وقررتها نفسية الأمم ، وهو أن الحركة الإصلاحية الثورية الجذرية فى ديانات أصيبت بتحريف أو انحراف جذرى — مهما بلغ القائمون بها والدعاة إلى هذه الحركة من الإخلاص والجهد — إذا لم تقم بانفصال واضح عن هذه الديانات المنحرفة أو المحرفة ، والتبرؤ منها ، وبقيت هذه الفرقة مندمجة فى مجتمعها الدينى الكبير ، الذى أنكرت على عقائده الرئيسة الأساسية ، وأخذت بمبدأ التسامح الذى لا مساغ له ، كان مصير هذه الفرق والدعوات الذوبان فى هذه الديانات أخيرا ، وذهبت كل المساعى والجهود التى قام بها زعماء هذه الحركات الإصلاحية والثورية أدراج الرياح ، وهذا شأن الحركات الثورية فى الديانة المسيحية وحركات الدعوة إلى التوحيد والمساواة البشرية التى نشأت فى الهند ، وأشرنا إليها .

ولذلك كان موقف الأنبياء السابقين وموقف الدين الإسلامى واضحاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ، قوياً لا ضعف فيه ولا تردد ، قد تجلى ذلك فى قول سيدنا إبراهيم

عليه السلام والمؤمنين معه للمشركين فى عصرهم ، الذى نقله القرآن : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » (١٤) .

ولم يكن ذلك مقصوراً على عصر أو مجتمع ، بل وصى بذلك إبراهيم أتباعه وخلفه وراءه ، يقول القرآن :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » (١٥) .

وبفضل ذلك بقى الإسلام ديناً واضحاً معيناً محافظاً على روحه وتعاليمه إلى هذه الساعة « ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة » .

---

(١٤) سورة الممتحنة ــ ٤ .
(١٥) سورة الزخرف ــ ٢٦ ــ ٢٨ .

٢ — مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية

إعلان تاريخى بليغ عن الأخوة الإنسانية :

ومأثرة رسول الإنسانية العظيمة ، ومنته الباقية السائرة فى العالم ، هو تصور الوحدة الإنسانية .

كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات ، بعضها دون بعض ، وقوميات ضيقة ، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتا هائلا ، كتفاوت بين الإنسان والحيوان ، وبين الحر والعبد ، وبين العابد والمعبود ، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقا ، فأعلن النبى — ﷺ — بعد قرون طويلة من الصمت المطبق والظلام السائد ، ذلك الإعلان الثائر المدهش للعقول ، المقلب للأوضاع :

« أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى » (١) .

وهذا الإعلان يتضمن إعلانين ، هما الدعامتان اللتان يقوم عليها الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام فى كل مكان وزمان ، هما وحدة الربوبية والوحدة البشرية .

---

(١) كنز العمال :.

« فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والانسان أخو الإنسان مرتين ، مرة وهى الأساس ، لأن الرب واحد ، ومرة ثانية لأن الأب واحد ، « يا أيها الناس ! اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساءاً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » (٢) ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (٣) .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس بنو آدم ، خلق من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى بالتقوى » (٤) .

لذلك كان الدين الإسلامى حقا مشاعا وثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكار مثل احتكار بنى لاوى من اليهود ، أو البراهمة من الهنود ، لا يتميز فيها شعب عن

---

(٢) سورة النساء — ١ .
(٣) سورة الحجرات — ١٣ .
(٤) رواه الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

شعب ، ولا نسل عن نسل ، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم ، بل الأعتماد فيها على الحرص والشوق ، وحسن التلقى وزيادة التقدير والتفوق فى الجهاد والاجتهاد .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبى — ﷺ — أنه قال : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس » .

وقد دان العرب فى جميع عصورهم لكل من برز فى العلوم الدينية وتفوق فيها وأقروا لهم بالإمامة والزعامة فيها ، وخلعوا عليهم النعوت والألقاب ما لم يخلعوها على كثير ممن برع فى هذه العلوم من العرب ، فلقبوا الإمام « محمد بن إسماعيل (ابن إبراهيم بن مغيرة بن بردزبه) الجعفى البخارى » صاحب الجامع الصحيح (م ٢٥٦هـ) بأمير المؤمنين فى الحديث ، وقالوا عن كتابه : إنه أصح كتاب بعد كتاب الله .

ولقبوا الإمام « أبا المعالى عبد الملك الجوينى النيسابورى » (م ٤٦٨هـ) بإمام الحرمين ، ولقبوا الإمام « أبا حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى » (٥٠٥ هـ) بحجة الإسلام .

وقد كان الموالى وأبناء العجم هم زعماء العالم ومراجع المسلمين فى جميع عواصم المملكة الإسلامية الواسعة فى آخر

القرن الأول الهجرى ، قد انتهت إليهم رئاسة العلم والفتيا والفقه والحديث ، وهى قصة معروفة .

وجميع كتب الطبقات والسير والتراجم وتاريخ الحضارة الإسلامية متفقة على ذلك فى العصور الإسلامية الذهبية التى ساد فيها العرب ، حتى قال نابغة العرب العلامة «عبد الرحمن بن خلدون» المغربى (م ٨٠٨ هـ) : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى » ويقول : فكان صاحب صناعة النحو « سيبويه » و « الفارسى » من بعده و « الزجاج » من بعدهما : وكلهم عجم فى أنسابهم ... ، وكذا الحديث وعلماء أصول الفقه وحملة الكلام وأكثر المفسرين » (٥) .

إنها كلمات خالدة جرت على لسان النبى — ﷺ — فى حجة الوداع ، وحينما قام النبى — ﷺ — بهذا الإعلان التاريخى العظيم ، لم يكن العالم فى وضع طبيعى هادىء يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة ويطيقها . إن هذا الإعلان لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف ، إن هناك أشياء

(٥) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية المصرية ، ص٤٠١ ملخصا .

قد تتجملها بصورة تدريجية ، أو من وراء ستار ، مثل التيار الكهربائى فقد نلمسه إذا كان مغطى أو داخلا فى باطن الأسلاك ، ولكننا اذا لمسناه عاريا أصابتنا صدمة عنيفة ، أو قضى علينا بتاتا .

إن هذه الأشواط البعيدة والمسافات الشاسعة من العلم والفهم ، والفكر الإنسانى التى قطعتها الإنسانية اليوم بفضل الدعوة الإسلامية وظهور المجتمع الإسلامى وبجهود الدعاة والمصلحين والمربين ، جعلت هذا الإعلان الهائل ، الثائر الفائر ، المزلزل لأوكار الجاهلية ومعاقل الشرك والوثنية والعنصرية ، حقيقة يومية عادية تنادى بها اليوم كل مؤسسة سياسية واجتماعية فى العالم ، ومنها ميثاق حقوق الإنسان (Human Rights Charter) الذى حملت لواءه الأمم المتحدة ، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية والمساواة البشرية ، فلا يستغربها أحد .

الوضع الاجتماعى قبل الإسلام وتقديس السلالات والأفراد :

وقد أتى على الإنسان حين من الدهر سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر ، وكانت بعض الأسر والسلالات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر وإلى الله سبحانه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً .

إن القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى ، فقــال : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، » (٦) وكان فراعنة مصر يزعمون أنهم تجسيد لإله الشمس ، « رع » (Ray) ومظهر له .

وأما فى الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا « سورج بنسى » يعنى أبناء الشمس ، و « جندر بنسى » أبناء القمر ، أما فى إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجرى فى عروقهم الدم الإلهى وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظــرة تقديس وتأليه ، وكان من ألقــاب كسرى أبرويز (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) ووصفه « فى الآلهة إنسان غير فان ، وفى البشر إله ليس لــه ثان ، علت كلمته وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضــوئه وينير الليالى المظلمة بنوره » (٧) .

وكذلك كانت القياصرة آلهة ، فكان يعد من تملك زمام البلاد إلهــا ، وكان لقبهم (Augustus) يعنى المهيب الجليــل (٨) .

أما الصينيون فكانوا يعتبرون الإمبراطور « ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر والأرض أنثى ، وباتصالهما خلــق

---

(٦) سورة المائدة ــ ١٨ .

(٧) إيران فى عهد الساسانيين ص ٦٠٤ .

(٨) راجع العالم الرومانى (The Rohan Worlad) تأليف : Victor Chopart ص ٤١٨ .

هذا الكون ، وأن الإمبراطور « ختنا » الأول ، هو بكر هذين الزوجين (٩) .

أما العرب فكانوا يعتبرون كل من سواهم العجم ، وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب وتحافظ على امتيازها فى الموسم ، فلا تشارك الناس فى مواقفهم ومساكنهم ولم تكن تدخل عرفات مع الحجيج بل تبقى فى الحرم ، وتقف بالمزدلفة ، وتقول : « نحن أهل الله فى بلدته وقطان بيته ، وتقول : نحن حمس » (١٠) .

وامتازت الهند من بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب ، والامتياز بين الإنسان والإنسان ، وكان نظاماً قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة ، مدعماً بالدين والعقيدة ، خاضعاً لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة ، قائماً على أساس الحرف والصنائع وتوارثها ، والعنصرية والسلالية ، وكان ذلك تابعاً لقانون مدنى سياسى دينى ، وصنعه المشرعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية ، وأصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة وهو يقسم سكان الهند فى أربع طبقات :

١ ـ طبقة الكهنة ورجال الدين ، وهم « البراهمة » .

٢ ـ رجال الحرب والجندية ، وهم « شهترى » .

---

(٩) انظر تاريخ الصين بقلم جيمس كاركرن .
(١٠) رواه البخارى عن عائشة رضي الله عنها .

٣ — رجال الفلاحة والتجار وهم « ويش » .

٤ — رجال الخدمة ، وهم « شودر » ، وهم أحط الطبقات ، فقد خلقهم خالق الكون من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها .

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركهم فيها أحد ، والبرهمى رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز فرض جباية عليه ، ولا يعاقب بالقتل فى حال من الأحوال ، أما « شودر » فليس لهم أن يقتنوا مالا ، أو يدخروا كنزا ، أو يجالسوا برهمياً ، أو يمسوه بيدهم ، أو يتعلموا الكتب المقدسة (١١) .

وكان أهل الحرف مثل الحاكة والسماكين والجزارين والحبالين (١٢) ، والكناسين والمباشرين لتنظيف المدن ، لا يسمح لهم — وفق أحكام منوسمرتى — بالإقامة داخل أسوار المدينة ، فكانوا يقيمون فى الخارج ويدخلون المدن بعد طلوع الشمس لممارسة أشغالهم ووظائفهم ، وكانوا

---

(١١) راجع للتفصيل القانون المدنى الاجتماعى الهندى ، المسمى بـ « منوشاستر » الأبواب ١ —٢—٩— ١٠—١١ ، أو كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عنوان : « نظام الطبقات الجائر » ص ٥٨ — ٦٠ الطبعة ١٣ دار القلم .

(١٢) صانعى الحبال .

يخرجون منها قبل أن تغرب الشمس ، فلم يكن لهم حظ بسبب هذا التشريع فى التمتع بخيرات الحياة المدنية وأناقتها ، وكانوا يعيشون عيشة بدوية منحطة خسيسة (١٣) .

دور الإسلام فى إقرار مبدأ المساواة البشرية ، وأثره العالمى :

أما الإسلام فقد أعلن مبدأ المساواة البشرية فى لفظ صريح مفهوم ليست فوقه صراحة وليس فيه تحفظ ، وجعل التفاضل بالتقوى والفضائل المعنوية فقط ، فقال « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (١٤) .

وقد اعترف كبار فضلاء الغرب وكبار المستشرقين والباحثين بعظم دور الإسلام فى إقرار مبدأ المساواة البشرية وتطبيقه عملياً فى المجتمع الذى يقوم على أساسه ، ويعمل فيه بتعاليمه ، يقول الكاتب الشهير (H.A.R. Gibb) فى كتابه « تجاه الإسلام » (Whither Islam ?) :

« لم يحرز مجتمع من المجتمعات البشرية نجاحاً مثل ما أحرزه الإسلام فى إقرار المساواة بين الأجيال المختلفة ، بصرف النظر عن الطبقات البشرية وتنوع فى الفرص ،

---

(١٣) راجع منوسمرتى ، وراجع للتفصيل لامتيازات الطبقات :
Manu and Yajanaval kya Jayswal, P. 85.

(١٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

وإمكانيات للعمل ، لقد تجلت من أوضاع الجالية الإسلامية الكبيرة فى إفريقيا والهند وإندونيسيا ، ومن الجالية الإسلامية الصغيرة فى اليابان ، قدرة الإسلام على إذابة الاختلافات فى الأجيال والتقاليد التى لا تزول على مر القرون وعلى مدار التاريخ ، فإذا كان لابد من إحلال عاطفة التعاون مكان الصراع والخصومة بين مجتمعى الشرق والغرب الكبيرين ، فلابد فى ذلك من الاستعانة بالإسلام والاعتماد عليه فى تحقيق هذا المطلوب » (١٥) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف (A. J. Toyanbee)
فى كتابه « الحضارة فى الامتحان » (Civilization on Trial) :

« إن القضاء على الفوارق السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالى الذى نعيش فيه فإن هذه الفضيلة هى كبرى حاجات هذا العصر ، إنه مما لا شك فيه أن الشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية قد حققت بعض النجاح فى ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الانسانى بخير ورحمة ، ولكن الحقيقة الراهنة التى يجب الاعتراف بها ، أنها أخفقت فى القضاء على العواطف السلالية والجنسية » (١٦) .

---

(15) H. A. R. Gibb 'Whither Islam, London, 1932, P. 379.

(16) A. J. Toyanbee : Civilization, on Trial (New York, 1948, P. 205).

ويقول « لارنس » Lawrence -e- Browne فى كتابه (The Prospects of Islam).

« إن الأخوة التى أعلنها الإسلام ، كانت أمراً واقعاً وشيئاً طريفاً لا عهد للشعوب الشرقية به ، إننا نشك فى أن مسيحى سوريا كانوا يعاملون مسيحى إيران • معاملة الإخوة للإخوة ، كما أن مسلمى الشام يعاملون إخوانهم فى الدين من الإيرانيين ، ويعتبرونهم أعضاء أسرة واحدة » (١٧) •

ونختم هذا بشهادة لآنسة هندوكية من أبرز السيدات الفاضلات فى شبه القارة الهندية ، وهى الأديبة الشاعرة فى الإنجليزية (Sarojini Naida) التى كانت تسمى بلبل الهند ، وكانت الحاكمة أخيراً لكبرى الولايات الهندية وهى الولاية الشمالية (Uttar Pradesh) تقول فى كتابها « محاضرات ومقالات » •

« إن الدين الإسلامى كان الدين الأول الذى دعا إلى الديموقراطية وعمل بمبادئها ، فلا يرتفع صوت الآذان من منارة مسجد إلا ويجتمع من يريد أن يعبد الله ، فيجتمعون فى صف خمس مرات فى اليوم ويركعون أمام الله على صوت التكبير ، وتتجلى المساواة الإسلامية فى أروع أشكالها ، إننى شعرت مرة بعد مرة بأن الإسلام بقوة الوحدة العملية يخرط

(17) Lawerence-e-Browne : The Prospects of Islam, London, 1949) P. 12.

أفراداً مختلفين من بنى آدم فى سلك واحد من الأخوة ، إنك إذا قابلت مصرياً أو جزائرياً أو هندياً أو تركياً فى لندن فلا يهم فى نظر أحد أن وطن أحدهم مصر ووطن الآخر الهند » (١٨)•

فى الهنــد :

وكان أعجب ما حمله المسلمون معهم حين دخلوا الهند ــ وهى أشد البلاد تمسكا بالعنصرية والنظام الطبقى المؤبد ، كما قدمنا ــ هى المساواة الإنسانية التى لم يكن للهند عهد بها ، فلا نظام طبقات ، ولا منبوذ ، ولا نجس بالولادة ، ولا جاهل يحرم عليه التعليم ، ولا تقسيم أبدى للحرف والصناعات ، يعيشون معاً ، ويأكلون جميعاً ، ويتعلمون سواءاً ، ويختارون ما يشاؤن من الحرف والصناعات ، وقد كانت صدمة عنيفة للذهن الهندى والمجتمع الهندى ، ولكن لا شك أنها أفادت الهند كثيراً ولطفت من شدة النظام الطبقى السائد ، وكان باعثاً قوياً على رد الفعل ضد النظام الطبقى وحافزاً للدعاة إلى الإصلاح الاجتماعى ولنسخ اللمس المنبوذ •

يقول الدكتور « تاراجند » ، وهو يتحدث عن الصلة بين المجتمع والشعب فى العهد المغولى :

« نشأت فى هذا العهد عدة مدارس فكرية استخدمت

(18) Sarojini Naidu : Speeches & Writings, Madras, 1918 P. 169.

اللغة الشعبية كأداة للتغيير والتفهيم فى الدعوة إلى الأفكار الثورية ، وكانت تدور حول الطبقات السفلى ، وكانت تمثل طموح الجماهير المحرومة إلى التقدم ونيل حقوقها السليبة ، وكان أصحابها يركزون على كرامة الإنسان واحترام الإنسانية لأنهم كانوا يعتقدون أن كل فرد يستطيع أن يصل إلى أعلى مستوى يبلغه الإنسان وذلك بعمله الفردى ، وكانوا يرفضون طبقة الكهنة وزيارة المعابد الوثنية ، والتقاليد والأعراف الفاشية ، وكانت دعوتهم وهتافهم أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله ويعبده بطريق مباشر وقد بدأت هذه الحركة فى القرن الخامس عشر المسيحى واستمرت إلى منتصف القرن السابع عشر المسيحى ، ثم اضمحلت على مر الزمان ، وكان قادتها ينتمون إلى مناطق هندية مختلفة ، ولكن الأثر الإسلامى بين واضح فى تعليماتهم وعقائدهم » (١٩).

وقد قرر هذه الحقيقة التاريخية « جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند سابقاً إذ قال :

« إن دخول الغزاة الذين جاؤا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام ، له أهمية كبيرة فى تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذى كان قد انتشر فى المجتمع الهندوكى ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ وحب الاعتزال عن

---

(19) Society and the State in the Mughal Period, Delhi 1941, P. 91.

العالم الذى كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التى كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت فى أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير ، البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندى المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية » (٢٠) .

(20) Discovery of India, 335-526.

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان وسموه

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشرى هى إعلان كرامة الإنسان وسموه،وشرف الإنسانية وعلو قدرها، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان ، فلم يكن على وجه الأرض شىء أصغر منه وأحقر ، وكانت بعض الحيوانات المقدسة وبعض الأشجار المقدسة التى علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة ، أكرم وأعز عند عبادها وأجدر بالصيانة والمحافظة عليها من الإنسان ، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء وسفك الدماء ، وكانت تقدم لها القرابين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب ، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة فى بلاد متقدمة راقية كالهند فى القرن العشرين •

أعاد سيدنا محمد ـ ﷺ ـ إلى الإنسانية كرامتها وشرفها ، ورد إليها اعتبارها وقيمتها ، وأعلن أن الإنسان أعز وجود فى هذا الكون ، وأغلى جوهر فى هذا العالم ، وليس هنا شىء أشرف وأكرم وأجدر بالحب ، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان ، إنه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه ، خلق له العالم وهو خلق لله وحده ، : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً (١) » وأنه أشرف خلق الله وفى

---

(١) سورة البقرة ـ ٢٩ .

مكان الرئاسة والصدارة « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٢) .

وليس أدل على كرامة الإنسان والاعتراف بعظمته من قول الرسول — ﷺ — : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله » (٣) .

وليس هنا أبلغ فى الدلالة على سمو الإنسانية والتقرب إلى الله بخدمتها والعطف عليها ، من الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى — ﷺ — قال :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : ابن آدم ! مرضت فلم تعدنى ، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده ، يا ابن آدم ! استطعمتك فلم تطعمنى قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم استقيتك فلم تسقنى قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : أما علمت أنه استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى (٤) .

---

(٢) سورة الإسراء — ٧٠ .
(٣) رواه البيهقى .
(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو الإنسانية وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان ، الذى جاء فى دين شعاره التوحيد ، وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامية والشرف العالى فى أى ديانة وفلسفة فى العالم القديم والحديث ؟ .

إنه — ﷺ — جعل الرحمة على بنى آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله ، فقال عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، أرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٥) .

ترى ما كان عليه وضع العالم وحالته الاجتماعية والسياسية قبل أن ينهض النبى — ﷺ — بهذه الدعوة ، دعوة الوحدة الإنسانية والكرامة الإنسانية ويجاهد فى سبيلها أبلغ جهاد ؟ .

لقد كان ثمن شهوة فرد واحد وهوى شخص واحد قبل بعثته — ﷺ — أكبر وأغنى من أرواح الآلاف ومآت الآلاف من البشر ، ينهض ملك واحد وإمبراطور واحد ، فيكتسح البلاد ويستعبد العباد ، ويهلك الحرث والنسل ، ويأتى على الأخضر واليابس ، لإشباع أنانية ملكية أو طموح سياسى .

يزحف « الإسكندر المقدونى » الكبير (Alexander The Great) (٣٥٦ — ٣٢٤ ق م) ويفتتح إيران وسوريا والبلاد الساحلية

(٥) رواه أبو داود .

ومصر ومعظم تركستان حتى بلغ الهند الشـــمالية ويدمر فى طريقه حضارات ومدنيات عتيقة راقية ، وينهض « يوليوس قيصر » الرومى (Julius Ceasar) (م ٤٤ ق م) والغــزاة الفاتحون والقادة العســكريون مثل « إينبــال » القرطاجى (Hanibal) (٢٤٧ ــ ١٨٣ ق م) فيقتنصون الفئــات البشرية كما يقتنص الصياد النهم بالقنص حيوان الغابة من غير اكتراث .

واستمرت عملية الإبادة والعبث بكرامة الإنسان وحياته بعد ظهور المسيح عليه الســلام ، وكان مــن هؤلاء الفاتكين بالبشرية والقساة الظالمين « نيرون » (م ٦٨ م) الذى فتك بمجموعة كبيرة من مواطنيه من جملتهم أمه وزوجه ، وهــو الذى يعتبر مسئولا عن الحريق الكبير الذى وقع فى روما ، وكانت العاصمة تشتعل ناراً ، وهو مشغول بالغناء والموسيقى(٦) .

أما القبائل الأوربية الوحشية من « القوط » الغربيين والشرقيين و « وندال » وغيرها التى نشطت فى القرن الخامس المســيحى (قبل البعثة المحمدية بقــرن) والتى كانت تدمر العواصم الكبيرة العامرة وتعيث فى الأرض فساداً ، وتنتشر الذعر والاضطراب ، فعن البحر حدث ولا حرج (٧) .

---

(٦) راجع للتفصيل موسوعة تاريخ العالم
(An encyclobedia of World History)
لوليام لينكر (William L. Langer) ١٩٦٤م .
(٧) أيضــاً .

أما العرب فقد هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء بقدر ما خفت فى عيونهم قيمة الحياة الانسانية وشرفها حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر ، فقد وقعت الحــرب بين « بكر » و « تغلب » ابنى « وائل » ، ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا لأن « كليباً » ــ رئيس معد ــ رمى ضرع ناقة « البسوس بنت منقذ » فاختلط دمها بلبنها ، وقتل جساس بن مرة كليبا ، واشــتبكت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال « المهلهل » أخو كليب :

« قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن » (٨) .

كذلك حــرب داحس والغبراء فما كان ســببها إلا أن داحساً فرس « قيس بن زهير » كان سابقاً فى رهــان بين قيس بن زهير و « حذيفة بن بدر » فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاتته الخيل ، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائهــا وأسر ونزح للقبائل ، وقتل فى ذلك ألوف من الناس (٩) .

وأما الغزوات النبوية التى قامت فى عهــد الرســول ــ ﷺ ــ والتى بلغ عددها سبعا وعشرين ، أو ثمانى وعشرين ، غزوة والبعوث والسرايا التى بلغ عددها ستين ، فقد أريق

---

(٨) انظر أيام العرب .
(٩) انظر أيام العرب .

فيها أقل دم عرف فى تاريخ الحروب والغزوات ، ولم يتجاوز القتلى فيها كلها ٩١٨ قتيلا من الطرفين ، وكانت حاقنة للدماء وعاصمة للنفوس البشرية ، محققة لأغراض كريمة كانت فى صالح البشرية ، وكانت خاضعة لآداب خلقية ، وتعليمات رحيمة ، جعلتها أشبه بعملية التأديب منها بعملية غزو وحرب (١٠) .

والإسلام يغذى بالإيمان ، والذى من أهم تعاليمه الخلقية الشعور بكرامة الإنسان ورفعته ويقوى هذا الإحساس ، حتى يصبح المسلم رقيق الشعور مرهف الحس فى ذلك ، فلا يرضى فى حال من الأحوال أن ينزله منزلة البهائم ، فلا يرتاح قلب المسلم لأن يعامل بنى جنسه معاملة العجماوات والجمادات ولا يستعبدهم لتفوقه الشخصى والغلبة عليهم ، ولا يرى فارقاً بينه وبين بنى جنسه فيذلهم ويهينهم ، وهنا قصة طريفة فى هذه المساواة البشرية واحترام الإنسانية :

قال « أنس بن مالك » — رضى الله عنه — كنا عند « عمر بن الخطاب » — رضوان الله عليه — إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، قال : ومالك ؟ قال أجرى « عمرو بن العاص » بمصر الخيل، فأقبلت فرسى ، فلما رآها الناس قام « محمد بن عمرو بن

(١٠) اقرأ وصايا النبى — صلى الله عليه وآله وسلم — وتعليماته عند توديع الجيوش فى كتب الحديث والسيرة ، واقرأ للتفصيل كتاب « السيرة النبوية » للمؤلف ، عنوان : « نظرة على الغزوات » ، ص ٣٢٥ — ٣٢٧ .

العاص » فقال : فرسى ورب الكعبة ، فلما دنا منى عرفته ، فقلت فرسى ورب الكعبة ، فقام إلى يضربنى بالسوط،ويقول خذها وأنا ابن الأكرمين ، قال : فوالله مازاد « عمر » على أن قال لـــه : إجلس ثم كتب إلى « عمرو » : « إذا جـــاءك كتابى هذا فأقبل ومعك ابنك « محمد » قال : فدعا عمـــرو ابنه فقال أأحدثت حدثا ، أجنيت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟ قال : فقدم على عمر ، قال أنس بن مالك : فوالله أنا عند عمر ، إذ نحن بعمرو وقد أقبل فى إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه، فقال أين المصرى ؟ قال : ها أنا ذا ، قال : دونك الدرة ، فاضرب ابن الأكرمين ، فضربه حتى أثخنه ، ثم قال : أجلهـــا على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، فقال يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى،قال أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه ، أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهـــاتهم أحراراً ، ثم التفت إلى المصرى فقال : انصرف راشداً ، فإذا رابك ريب فاكتب إلى (١) •

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ، لابن الجوزى ، ص ٨٦ —

٤ ـ رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها

حقــوقها وحظــوظها

نقدم أولا الخلفيــات التى لابد للشــعور بعظم الدور الذى قام به الإسلام فى صالح المرأة ، من الاطلاع عليها ، وهنا مقتطفات من كتاب « المرأة فى القرآن » للأستاذ عباس محمود العقاد،فإنه يمتاز بالتقصى ودراسة واسعةللموضوع.

يقول المؤلف وهــو يذكر مكانة المــرأة فى الــديانات والمجتمعات القديمة السالفة على الإسلام .

« شريعة « مانو (١) » فى الهند لم تكن تعرف للمرأة

---

(١) « مانو » الذى أشار اليه الأستاذ العقاد : هو « منو » الذى يعتبر القانون الاجتماعى المدنى العائلى فى الهنادك ، وهو شخصية يكتنفها الكثير من الغموض والخيال والتقديس ، ولا يمكن تحديد عصره ، ولا تعيين شخصــيته ، وهــو يتراءى فى بعض عبارات الكتب المقدسة عند الهنادك « ويدا » إلهاً فوق البشر ، ويبدو فى بعض عباراتها جداً للجيل البشرى وممثلا أولا لفاطر الكون ، وينطبق هذا الاسم والوصف على عدة شخصيات فى الهند القديمة .

أما « منواسمرتى » الــذى هو دســتور الهند القــديمة الاجتماعى والعائلى ، فهــو ينسب إلى « بهركو مهاراج » احد كبار علماء القانون فى الهند القديمة ، والذى كان ينتمى فى عمله

حقاً مستقلا عن حق أبيها ، أو زوجها أو ولدها فى حالة وفاة الأب والزوج ، فإذا انقطع هؤلاء جميعاً وجب أن تنتمى إلى رجل من أقارب زوجها فى النسب ، ولم تستقل بأمر نفسها فى حالة من الأحوال ، وأشد من نكران حقها فى معاملات المعيشة ، نكران حقها فى الحياة المستقلة من حياة الزوج ، فإنها مقضى عليها بأن تموت يوم موت زوجها ، وأن تحرق معه على موقد واحد ، وقد دامت هذه العادة العتيقة من أبعد عصور الحضارة البرهمية إلى القرن السابع عشر ، وبطلت بعد ذلك على كره من أصحاب الشعائر الدينية .

وشريعة حمورابى (٢) التى اشتهرت بها بابل كانت تحسبها فى عداد الماشية المملوكة ، ويدل على غاية : مداها فى تقدير مكانة الأنثى أنها كانت تفرض على من يقتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه بنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها ، وقد يضطر إلى قتلها لينفذ حكم الشريعة المنصوص عليها .

وكانت المرأة عند اليونان الأقدمين مسلوبة الحرية والمكانة فى كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية ، وكانت تحل

وتشريعه إلى « منو » وقد اعتبر « منواسمرتى » أقدم كتاب قانون فى الهند القديمة ويذهب أكثر الباحثين إلى انه تم تأليف هذا الكتاب فى القرن الثالث قبل المسيح . مستفاد من كتابى الدكتور كنكاناتهه جها ، والدكتور جيسوال من كبار علماء تاريخ القانون الهندوسى — الندوى .

(٢) أشهر ملوك الأسرة الحاكمة فى العراق التى اسست حكومة قوية ، وحكمت قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة « الندوى » .

فى المنازل الكبيرة محلا منفصلا عن الطريق ، قليل النوافذ ، محروس الأبواب ، واشتهرت أندية الغوانى فى الحواضر اليونانية لإهمال الزوجات وأمهات البيوت ، وندرة السماح لهن بمصاحبة الرجال فى الأندية والمحافل المهذبة ، وخلت مجالس الفلاسفة من جنس المرأة ، ولم تشتهر منهن امرأة نابهة ، إلى جانب الشهيرات من الغوانى أو من الجوارى الطليقات .

وقد كان أرسطو يعيب على أهل « اسبرطة » أنهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم ، ويمنحونهن من حقوق الوراثة والبائنة وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن ، ويعزو سقوط « اسبرطة » واضمحلالها إلى هذه الحرية ، وهذا الإسراف فى الحقوق .

ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين فى الحكم على المرأة بالقصور ، حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الزوج أو الأبناء ، وشعارهم الذى تداولوه إبان حضارتهم أن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع ، ومن ذلك قول « كاتو » المشهور (Nunguam Exuitur Servitus Mulie Brio) ولم تحرر المرأة الرومانية من هذه القيود إلا يوم أن تحرر منها الأرقاء على أثر التمرد ثورة بعد ثورة ، وعصياناً بعد عصيان ، فتعذر استرقاق المرأة كما تعذر استرقاق الجارية والغلام ».

وبعد ما تحدث الأستاذ العقاد عن الحضارة المصرية

القديمة التى تمتعت المرأة فيها ببعض الحقوق والاعتبارات، قـــال :

« بيد أن الحضارة المصرية زالت وزالت شرائعها معها قبل عصر الإسلام ، وسرت فى الشرق الأوسط يومئذ غاشية من كراهة الحياة الدنيا بعد سـقوط الدولة الرومانيـة بما انغمستفيه من ترفوفساد ، ومن ولع باللذات والشهوات، فانتهى بهم رد الفعل إلى كراهـة البقاء وكراهـة الذرية ، وشاعت فى هذه الفترة عقيدة الزهد والإيمان بنجاسة الجسد ونجاسة المرأة ، وباءت المرأة بلعنة الخطيئة ، فكان الابتعاد منها حسنة مأثورة لمن لا تغلبه الضرورة •

ومن بقايا هذه الغاشية فى القرون الوسطى أنها شغلت بعض اللاهوتيين إلى القرن الخامس للميلاد ، فبحثوا بحثاً جدياً فى جبلة المرأة ، وتساءلوا فى مجمع « ماكون » هل هى جثمـان بحـت ؟ ، أو هى جسـد ذو روح ينـاط بهـا الخلاص والهـلاك ؟ وغلب على آرائهم أنها خلو من الروح الناجية ، ولا استثناء لإحدى بنات حواء من هذه الوصية ، غير السيدة العذراء أم المسيح عليه الرضوان •

وقد غطت هذه الغاشية فى العهد الرومانى على كل ما تخلف من حضارة مصر الأولى فى شأن المرأة ، وكان اشتداد الظلم الرومانى على المصريين سبباً لاشـتداد الإقبـال على

الرهبانية والإعراض عن الحياة ، ومازال كثير من النساك يحسبون الرهبانية اقترابا من الله وابتعاداً من حبائل الشيطان، وأولها النساء .

ومن المتواتر فى أقوال أناس من المؤرخين الغربيين أن الإسلام ينقل شريعته من الشرائع التى تقدمته ، ولا سيما الشريعة الموسوية ، ولا يتضح بطلان هذه الدعوى من شيء كما يتضح من المقابلة بين مركز المرأة فى حقوقها الشرعية كما نصت عليها التوراة ، ومركز المرأة فى حقوقها الشرعية التى قررها الإسلام بأحكام القرآن .

فالمأثور عن الكتب المنسوبة إلى « موسى » — عليه السلام — أن البنت تخرج من ميراث أبيها إذا كان له عقب من الذكور ، وما عدا هذا الحكم الصريح فهو من قبيل الهبة التى يختارها الأب فى حياته ، حيث لا يجب الميراث وجوب الحقوق الشرعية بعد الوفاة .

والحكم المنصوص عليه فى حق الميراث أن تحرم البنات ما لم ينقطع نسل الذكور ، وأن البنت التى يؤول إليها الميراث ، لا يجوز لها أن تتزوج من سبط آخر ، ولا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها ، وجاء هذا الحكم بالنص الصريح فى غير موضع من كتب التوراة .

وننتقل إلى البلاد التى بدأت فيها دعوة القرآن الكريم ، وهى بلاد الجزيرة العربية ، فلا نتوقع أن تكون للمرأة فيها قسمة من الإنصاف والكرامة غير هذه القسمة العامة فى بلاد العالم على تباعد أرجائه وتنوع عاداته وشرائعه ، ولعلها كانت تسوء فى بعض أنحاء الجزيرة فتهبط فى المساءة إلى حضيض لم تهبط إليه فى سائر الأنحاء من الأمم كافة ، وترتقى فلا يكون قصاراها من الارتقاء ، إلا أنها تكرم عند زوجها لأنها بنت ذلك الرئيس المهاب أو أم هذا الابن المحبوب ، فأما أنها تكرم وتصان لأنها من جنس النساء ، يعمها ما يعم بنات جنسها من الحقوق والمعاملة ، فذلك ما لم تدركه قط من منازل الإنصاف والكرامة .

وقد يحميها الأب والزوج كما يحميها الأخ والابن حماية الواجب المفروض عليه بكل ما فى جواره أو كل ما فى حوزته وحماه ، فيعاب على الرجل منهم أن يهان حرمه كما يعيبه أن يعتدى عليه فى كل محمى أو ممنوع ، ومنه فرسه ودابته وبئره ومرعاه .

فإذا هانت المرأة فهى عار يأنف منه أهلوه أو حطام يورث مع المال والماشية ، ومن خوف العار يدفن الرجل بنته فى طفولتها ويستكثر عليها النفقة التى لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها فى طفولتها ، أنها حصة من الميراث تنقل من الأباء ، وتباع وترهن فى قضاء المنافع وسداد

الديون ، ولا يحميها هذا المصير إلا أن تكون عزيزة قوم تعز بما يعز عندهم من ذمار وجوار » ا هـ (٣) •

قارن كل ذلك بدور الإسلام الجديد الفريد فى رد الاعتبار إلى المرأة ، وإحلالها مكانتها اللائقة فى المجتمع الإنسانى ، والإنصاف لها من القوانين الجائرة والأعراف الظالمة وأنانية الرجال ، ولنظرة عابرة فى القرآن تكفى لمعرفة الفرق الهائل بين التقييم الجاهلى للمرأة ، والتقييم القرآنى الإسلامى لها ، والسلوك الفردى والتشريعات والقوانين الاجتماعية دائماً تنبثق من هذا التقييم وتقوم عليه •

إن الآيات التى وردت فى القرآن عن نصف المجتمع الإنسانى والجنس اللطيف تثير الثقة فى المرأة بمكانتها فى هذا المجتمع ومنزلتها عند الله والقدرة على الوصول إلى أعلى البر والتقوى وتكوين المجتمع الصالح ، وتقرن المرأة دائماً بالرجل فى قبول الأعمال ، والنجاة والسعادة والفوز فى الآخرة ، فيقول الله تعالى :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » (٤) •

---

(٣) المرأة فى القرآن ، للأستاذ عباس محمود العقاد ، طبع دار الهلال مصر ، ص ٥١ ــ ٥٧ .
(٤) سورة النساء ــ ١٢٤ .

ويقول : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » (٥) .

وهذه الآيات لا تكتفى بمنح الفرص والوسائل للحياة الطيبة بل تكفلها للمرأة وتعدها إياها ، و « الحياة الطيبة » كلمة جامعة عميقة المعانى تعطى معنى الحياة المثالية السعيدة الفاضلة ، وتشتمل على جميع شعب الكرامة والرضا وهدوء البال وما لا يأتى فى الحصر :

« ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٦) .

ويذكر الصفات الكريمة والأعمال الصالحة وشعب الدين الرئيسية ، فلا يكتفى بقرن الإناث مع الذكور ، والإشارة إلى أنه لا فرق فى الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث وكفى ، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفة صفة ، فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكور ، وإن طال البيان ، لأن قياس النساء فى جميع هذه الصفات على الذكور ، الرجال الأقوياء الأغنياء ، مما لم تتعوده أذهان الناس ، التى نشأت تحت ظلال الديانات والفلسفات والمجتمعات والآداب القديمة —

---

(٥) سورة آل عمران — ١٩٥ .
(٦) سورة النحل — ٩٧ .

سواءاً الدينية أو الأدبية ــ وفرقت بين الرجال والنساء دائماً فاستثنت الإناث من مشاركة الرجال ــ فضلا عن مزاحمتهم والسبق عليهم ــ فى كثير من مجالات الفضيلة وعلو الهمة •

اقرأ معنى قول الله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً » (٧) •

ولا يكتفى القرآن بأنواع العبادات والقربات ، بل يشرك الأخوات المسلمات مع الرجال الأقوياء العلماء ، أصحاب الإرادة القوية والفتوة وعلو الهمة والصبر والتعرض للمعارضة ، فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويجعل من المؤمنين والمؤمنات كتلة مترابطة متماسكة متعاونة على البر والتقوى فيقول :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » (٨) •

---

(٧) سورة الأحزاب ــ ٣٥ .
(٨) سورة التوبة ــ ٧١ .

ويجعل المثل الكامل والشرط لبلوغ المنزلة العليا فى الكرامة الإنسانية التقوى ، بصرف النظر عن الجنس والنسل والدم ، فيقول :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليهم خبير » (٩) .

وهذا كله كافل بحفز الهمم وشحذها ، وإثارة الاعتزاز والثقة فى نفوس الإناث والابتعاد عما يسمى فى علم النفس الحديث بمركب النقص (Inferiority Complex) وبفضل ذلك وجد تاريخ — بعد مبعث الرسول ﷺ — إلى العصر القريب — حافل بأمجاد السيدات المسلمات (١٠) المعلمات المربيات ، المجاهدات الممرضات ، الأديبات المؤلفات ، الحافظات للقرآن ، الراويات للحديث ، الزاهدات الربانيات ، المكرمات المبجلات فى المجتمع ، يستفاد منهن ويتخذن قدوة ويضربن مثلا .

أما الحقوق والحظوظ التى منح الإسلام المرأة المسلمة من حق التمليك والميراث ، وحرية البيع والشراء ، والمطالبة

---

(٩) سورة الحجرات — ١٣ .

(١٠) راجع الكتب الخاصة التى ألفت عن فضليات النساء مثل « أعلام النساء فى عالمى العروبة والإسلام » لعمر رضا كحالة (١ — ٣) وسيرة أم المؤمنين السيدة عائشة للعلامة السيد سليمان الندوى .

بالتفريق إذا لزم ذلك (وهو الذى يسمى بالخلع) وحق فسخ الخطبة إن لم ترض بالزواج ، وحضور الأعياد والجمع والجماعات ، إلى غير ذلك فهى مما تحويه متون الكتب الفقهية (١١) .

وقد اعترف المنصفون من علماء الغرب والباحثون فى علم الاجتماع وتاريخ المدنيات بما تمتاز به تعاليم القرآن والشريعة الإسلامية ، من الاحترام الممتاز للمرأة والاعتراف بحقوقها سلوكا وتشريعاً ، ونحن نكتفى هنا بشهادتين ، ونقدم شهادة لسيدة غربية فاضلة قامت فى الهند بحركة تربوية إصلاحية ، ورأست منظمة ثقافية كان مركزها فى جنوب الهند ، وساهمت فى حركة التحرير الهندية ، فلشهادة المرأة قيمتها ووجاهتها ، للحساسية الزائدة التى توجد عندها فى قضية المرأة والدفاع عن جنسها .

تقول أينى بيسنت (Mrs. Annie Besant) :

« إن القانون الإسلامى فيما يتعلق بالمرأة من أرقى القوانين التى ظهرت فى الدنيا وأكثرها عدلا ، إنه يسبق التشريعات الغربية فيما يتعلق بالعقار وحقوق الوراثة وقانون الطلاق بشوط بعيد ، إنه حارس لحقوق المرأة ، إن كلمات « الاكتفاء بزوجة واحدة » و « تعدد الزوجات » قد سحرت

---

(١١) يرجع إلى كتاب « المرأة بين الفقه والقانون » للدكتور مصطفى السباعى عليه رحمة الله .

الناس وصرفت أنظارهم عن التفكر فى ما تعيشه السيدات الغربيات من هوان وبؤس ، وقد تركها الأزواج الأولـون المسئولون عن عصمتهن فى الشوارع وقد قضوا منهن لبنانتهم وزهدوا فيهن سآمة ومللا ، فلا يلقين بعد ذلك عـوناً ولا رحمـة » (١٢) .

ويقول الأستاذ N. L. Coulsen : « إنه مما لا شك فيه أن التشـريعات القـرآنية فيمـا يختص بتحديد مركز النساء خصوصاً المتروجات منهن ، من أمثل القوانين وأعدلها ، إن قوانين النكاح والطلاق فى عدد كبير منها تهدف ـ بصـفة عامة ـ إلى التحسين فى مركز النساء فى المجتمع والتقـدم بهن ، وقد قامت على تغييرات ثورية فى قوانين العرب التى كانت تسود قبل الإسلام ، إن المرأة منحت شخصية قانونية مستقلة لم تكن تملكها فى السابق ، وإن أكبر تغيير أحـدثه القرآن فى أحكام الطلاق هو سن قانون العدة للمطلقة » (١٣) .

وكانت هذه النظرة الجديدة فى المرأة واعتبارها ومعاملتها فى ضوء هذه المبادىء والآيات القرآنية والتعاليم النبوية (١٤) ، ولادة جديدة للجنس النسوي فى العالم البشرى ، إذ لم يكن

---

(١٢) The Life and Teaching of Mohammad Madras, 1932,

(١٣) P. 3, Islamic Surveys : The History of Islamic Law (N.L. Coulsen) Edimburg, 1971, P. 14.

(١٤) يرجع فى ذلك إلى كتب الحـديث ، أبواب النكـاح والعشرة والأخـلاق .

بينها وبين حيوان داجن ، أو آلة صماء ، أو مؤودة أو رهينة ، أو صورة جميلة ودمية فى القصر ، فرق كبير فى العالم القديم كما وصفناه سابقاً ، فكانت مفاجأة مباركة فى عالم الحضارة والأخلاق والحياة المنزلية والرابطة الزوجية ، تجاوبت لها وتأثرت بها فى قليل وكثير المجتمعات والبلاد الكثيرة ، لا سيما البلاد التى دخل فيها الإسلام غازيا وفاتحاً ، أو حاكماً منظما للأمور ، أو داعياً مصلحاً ومثالا عملياً .

إن عظمة هذه الهدية فى بلاد كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار على وفاة أزواجهن ولا يرين ولا يرى المجتمع لهن حقاً فى الحياة بعد الأزواج ، واضحة لا تحتاج إلى تعليق .

قام الملوك ورجال الحكم المسلمون بدورهم فى إصلاح الطقوس والعادات المتبعة فى الهند وخاصة إصلاح تقليد ما يسمى « ستى » وهو إحراق الأرملة نفسها أثناء علمية إحراق جثمان زوجها الميت ، وذلك بدون أن يلحقوا بالمعتقدات الدينية والطقوس الهندية أى إساءة ، أو انتهاك حرمة ، يقول الرحالة الشهير الدكتور برنير (Bernier) الطبيب الفرنسى الذى زار الهند فى عهد « شاهجهان » :

« لقد هبط عدد حوادث « ستى » نسبياً لأن المسلمين الذين يحكمون هذه البلاد ، يبذلون جهدهم للقضاء على هذا التقليد الوحشى ، ولو أنهم لم يسنوا أى قانون لمنع هذه الحادثة من الوقوع ، لأنهم لا يهدفون فى نظام حكمهم إلى

التدخل فى شئون الهنادك الدينية ، بل إنهم يسمحون لهم بالقيام بأداء واجباتهم الدينية وطقوسهم ، ويوفرون لهم كل حرية ، لكنهم يحاولون إيقاف تقليد « ستى » بطريق غير مباشر ، فلا تستطيع أى امرأة أن تقدم نفسها لـ « ستى » إلا بإذن من حاكم الولاية ، أما الحاكم فإنه لا يسمح لها به إلا إذا تأكد أنها لن تمتنع عن عزمها بأى حال من الأحوال ، ويحاول حاكم الولاية إقناع المرأة وحملها على العدول عن إرادتها ، وينفرها ويوعدها ويمنيها كذلك ، وعند ما تخفق هذه المحاولات ولا تثمر عملية الإقناع والوعيد ، يرسلها إلى حرمه ، لكى تنضم إلى عقيلات الحرم ، فتقلع عن إرادتها بإقناعهن ، ولكن رغم جميع هذه التدابير لا تزال حوادث « ستى » تحدث بكثرة ، وخاصة فى مناطق الواجوات (الأمراء) والأماكن الخاضعة لنفوذهم ، حيث لا يحكم المسلمون » (١٥) .

---

(١٥) رحلة الدكتور برنير ، ج/٢ ، ص ١٧٢ .

٥ ــ محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء والثقة والاعتزاز فى نفس الإنســان

المأثرة الخامسة أن أكثر أفراد النوع الإنســانى كانوا مصابين باليأس من رحمة الله ، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية ، وكان فى إيجاد هذا الجو الخاص والحالة العقلية الخاصة ، دور كبــير لبعض الديانات الشرقية القديمة ، والمســيحية المحرفة فى أوربا وفى الشرق الأوسط .

دانت الديانات القديمة فى الهند بعقيدة التناسخ وفلسفته التى لا مجال عندها فى إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً ، وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما ، لمــا قدمت يداه فى حياته الأولى ، وذلك بالظهور فى شكل سبع مفترس ، أو دابة سائمة ، أو حيوان خسيس ، أو إنسان شقى معذب .

بينما نادت المسيحية بأن الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة ، والمسيح صار كفارة وفداء له عن هذه الذنوب ، فأنشأت هذه العقيدة بطبيعة الحــال فى نفوس الملايين فى

العالم المتمدن المعمور الذين اعتنقوا المسيحية ، سوء ظن بنفوسهم ويأساً من مستقبلهم ومن الرحمة الإلهية •

هنالك أعلن النبى — ﷺ — بكل قوة وصراحة أن فطرة الإنسان هى كاللوح الصافى ، الذى لم يكتب عليه بعد ، ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش ، ويحرر فيه أجمل تحرير ، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه ويستحق الثواب والعقاب والجنة والنار بعمله ، وهو غير مسئول عن عمل غيره ، فقد ذكر القرآن فى مواضع كثيرة أن الإنسان مسئول عن عمله فحسب ، وأنه مثاب ومشكور على سعيه •

« ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (١) •

هذا الإعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية وانطلق إلى الأمام بعزم قوى وحماس زائد وعاطفة جياشة ، ليصنع مصيره ومصير الإنسانية ، ويجرب حظه وقدرته فى تلك الإمكانيات الهائلة ، والفرص الغالية •

إن محمداً — ﷺ — قرر أن المعاصى والذنوب ، والأخطاء والزلات ، فترة عابرة زائلة فى حياة الإنسان ، يقع فيها الإنسان بجهله وغروره وقصر نظره حينا ، وبإغواء الشيطان

---

(١) سورة النجم — ٣٨ — ٤٠ •

وإغراء النفس بعض الأحيان ، وأن الصلاح والصلاحية والاعتراف بالذنب والندامة أصل من أصول فطرته وجوهر إنسانيته ، وأن الابتهال إلى الله والتضرع إليه والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب ، دليل على شرف الإنسان وأصالة معدنه وهو ميراث آدم عليه السلام •

إن محمداً ـ ﷺ ـ فتح أمام المسلمين الخاطئين الغارقين فى حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم ، باباً للتوبة ، ودعا إليها الناس دعوة عامة وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً ، وأفاض فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنه أحيا هذا الركن الخاص العظيم من الدين ، ولذلك سمى بـ « نبى التوبة » من بين أسمائه الجميلة الأخرى •

إنه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسانية ما فاته فحسب ، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات والقربات عند الله وصارت طريقاً سهلا للوصول فى أقرب وقت إلى أقصى درجات القرب والولاية ، يغبط عليها النساك والزهاد والأبرياء والأطهار من عباد الله •

إن القرآن شرح فضل التوبة وسعتها ونقاء الإنسان من أكبر ذنب وأعظم معصية يتصورها الإنسان ، وذلك بأسلوب جميل يستهوى القلوب ، ودعا العصاة والمذنبين وصرعى النفس والشياطين ، إلى اللجوء إلى الله سبحانه والفرار إليه

والتفيوء بظلال رحمته والترامى فى أحضان رأفته وعطفه ، وصور بحار رحمته الزاخرة الواسعة الأرجاء ، المحيطة بالأنفس والآفاق ، تصوراً رائعاً جميلا ، شائقاً مثيراً ، يبدو منه أن الله سبحانه وتعالى ليس حليماً رحيماً وجواداً كريماً فحسب ، بل إنه — إذا صح هذا التعبير — يحب التوابين ويشتاق إليهم ويشكر سعيهم البليغ ويقدره كل التقدير •

إقرأ الآية التالية ، وتذوق أسلوب هذا اللطف والعطف ، وجو الود الذى يغشى هذه الآيات :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » (٢) •

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد فى الآية التالية حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية بالتائبين ، إنها آية من سورة التوبة •

« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (٣) •

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه وإظهار

---

(٢) سورة الزمر — ٥٣ .
(٣) سورة التوبة — ١١٢ •

الثقة به ، تجلى واضحاً حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب النبى — ﷺ — الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر صحيح مقبول ، وبقوا فى المدينة ، فبدأ القرآن بذكر النبى — ﷺ — والمهاجرين والأنصار الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة ، ثم ثنى بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، حتى لا يشعر هؤلاء المخلفون بإفرادهم بالتوبة ، ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان ، وما يسمى فى علم النفس بمركب النقص ، ويتضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية فى الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلا داعى للاستحياء ولا مقام للعار .

هل هناك مثال أروع وأجمل ، وأدق وأعمق ، وأحلى وأزهى ، لقبول التوبة وتكريم التائب ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود وحب وحنو فى تاريخ الأديان والأخلاق والتربية والإصلاح من هذا المثال ؟

إقرأ معى الآيات التالية :

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » (٤) .

---

(٤) سورة التوبة — ١١٧ — ١١٨ .

ثم أعلن أيضا كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء ، وتسبق غضبه وجلاله ، ويقول الله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شيء » (٥) ، وجاء فى حديث قدسى : « إن رحمتى سبقت غضبى » (٦) ، إنه جعل اليأس مرادفاً للكفر والجهل والضلال ، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٧) ، وذكر فى موضع آخر قول إبراهيم عليه السلام فقال : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » (٨) .

وهكذا أسعف النبى — ﷺ — بهذه الدعوة المفتوحة العامة إلى التوبة وبيان فضائلها وسعتها وشمولها ، الإنسانية المذعورة الخائفة التى كانت تئن تحت وطأة اليأس والقنوط وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب والعذاب ومظاهر الغضب والجلال ، وقد كان فى ذلك لعلماء اليهود وشراح الكتب المقدسة ورهبان المسيحية الغلاة المتطرفين أكبر نصيب ، ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة ونفخ فى قلبها الضعيف المتوانى وجسدها الهامد البارد روحاً جديدة وحرارة جديدة ، وهيأ لجروحها بلسما ورفعها عن حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة ، والثقة والاعتزاز بالنفس والاعتماد على الله .

(٥) سورة الأعراف — ١٥٦ .
(٦) رواه مسلم .
(٧) سورة يوسف — ٨٧ .
(٨) سورة الحجر — ٥٦ .

٦ ــ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة والمعسكرات المتحاربة

لقد وزعت الديانات القديمة ، خاصة المسيحية ، الحياة الإنسانية فى قسمين ، قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضى فى معسكرين : معسكر رجال الدين ورجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير ووقف بينهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين •

وكان كل واحد يعتقد أن هناك خصومة وعداء بين الذين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه فلا يمكن ــ على حد قولهم ــ أن يركب فى سفينتين فى وقت واحد ، وإنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادى ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة ، وإعراض عن فاطر السماوات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير رهبانية وقطع صلة عن الدنيا وما فيها •

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ،

وكل فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح ، والنهضة والعزة والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشرى فى الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة فى الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية ، آثر الدنيا على الدين ورضى بها – كحاجة اجتماعية وواقع حسى – واطمأن إليها ، وعكف على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ولم يبق له أمل فى الرقى الدينى والتقدم الروحى .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس التناقض الذى حسبوه بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذى كان يتزعم الحكم الدينى ، على الكنيسة التى كانت تمثل الدين ، وتجرد عن سائر قيوده ، فثارت الحكومات – بطبيعة المنطق – كفيل هائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه .

هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا ، وذلك العداء المشئوم بين « رجال الدين » و « رجال الدنيا » فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية ، وكانت فريسته الغرب أولا والأمم التى دانت له فى الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايته ثانيا .

وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون

الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق فى التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، الذين لم يدخروا وسعا فى إضلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة ، (١) وقدموا صورة وحشية كالحة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر فى نهاية الشوط إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى — فى أوسع معناها — إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفى النقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الدينى ، أو فقد الحاسة الدينية فى هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة (٢) .

ومن أعظم هدايا البعثة المحمدية ومنتها العظيمة نداؤها الذى دوت به الآفاق : أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذى ينشده المرء والذى عبر عنه بلفظ بسيط ولكنه واسع عميق « النية » ، فقال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » (٣) .

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى

---

(١) اقرأ تاريخ أخلاق أوربا ، ج/٢ ، لمؤلفه ليكى Lecky

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر الأمريكى .
Conflict between Religion & Science by John William Draper

(٣) الجامع الصحيح للبخارى .

أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالا وحكماً وإدارة ، أو تمتعاً بطيبات الأرض وتحقيقاً لمطالب النفس وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستعمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة والحياة العائلية والزوجية •

وكل عبادة وخدمة دينية — بالعكس من ذلك — تعتبر دنيا إذا تجردت عن طلب رضا الله سبحانه والخضوع لأوامره ونواهيه وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة أو هجرة وجهاداً ، أو ذكراً وتسبيحاً ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعى ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالا وتكون بينه وبين الله حجاباً •

وهذه قصة النصرانية فى القرون الوسطى ، فقد كانت الكنيسة — وهى ممثلة الدين — والحكومة على طرفى نقيض ، وقد قام بينهما صراع عنيف انتهى إلى فصل الدين عن السياسة ، وكانت نتيجته ما يعرفها الجميع ، ولا يزال العالم يكتوى بنارها ويتعثر فى طريقها •

وقد أجاد الدكتور « محمد إقبال » تصوير هذه الحقيقة التاريخية ، إذ قال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها — بالطبع — القيادة والسيادة والحكم والإدارة ، فقد كان

هناك عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء واستيلاء » .

« وخلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه، كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفى الأيدى أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شىء ، فلما انفصل الدين عن الدولة جاءت الشهوة ، وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شئوم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذى كان بشيراً ونذيراً فى وقت واحد ، يتجلى فى بشارته الإنذار ، وفى إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعباد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد » (٤) .

إن المأثرة الخالدة من مآثر سيدنا محمد — ﷺ — أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا فجعل هذين المتنافرين المتباعدين الذين عاشا فى خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان فى إلف وود ، ويتعايشان فى سلام ووئام ، إنه — ﷺ — رسول الوحدة ، بشير ونذير فى الوقت

---

(٤) روائع إقبال ، ص/٢٢٨ (الطبعة الرابعة ، مطبعة العلماء لكنؤ) .

ذاته ، إنه أخذ النوع البشرى من المعسكرين المتحاربين ، إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية ، وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » (٥) .

إنه أعلن بالآية القرآنية : « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » (٦) أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة مضادة ، بل هى وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب ، ويقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره ، وهى تشمل شعب الحياة كلها ، وميادين الكفاح كلها ، وأصناف العمل كلها ، إذا تحقق الإخلاص وصحت النية وأريد به وجه الله وكانت على المنهج الصحيح الذى جاء به الأنبياء ، فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام وأنه البشير والنذير فى نفس الوقت .

إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا ، فجعل الحياة كلها عبادة ، وجعل الأرض كلها مسجداً ، وأخذ بيد الإنسان من معسكرات متحاربة متصارعة ، إلى جبهة واحدة واسعة ، من العمل الصالح ، وخدمة الإنسانية النافعة ، وابتغاء مرضات الله ، فترى هناك ملوكا فى أطمار الفقراء ، وزهاداً فى زى الملوك ، والأمراء ، جبال حلم وينابيع علم ، وعباد ليل وأحلاس خيل ، من غير تناقض أو صعوبة أو اختلال أو تعسف .

---

(٥) سورة البقرة ـــ ٢٠١ .
(٦) سورة الأنعام ـــ ٦٣ .

٧ – إيجـاد الرباط المقـدس الـدائم بين الدين والطم وربط أحـدهما بالآخر وتفخيم شأن العلم والحث عليه

ومن مآثر سـيدنا محمد – ﷺ – الخالـدة ، ومن خصائص بعثته ودعوته ، أنه – ﷺ – أنشأ الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم وربط مصير أحدهما بالآخر ، وفخم شأن العلم وحث عليه حثاً لا مزيد عليه ، فكانت نتيجتـه الطبيعية وجود حركة علمية وتأليفية لا يوجد مثيلها فى تاريخ الأدوار والمدنيات التى قامت على أساس الدين والرسالات السماوية .

وأكبر دليل على ذلك أن أول وحى نزل على سيدنا محمد – ﷺ – ، من فيه فاطر الكون على النوع البشرى خـاص بالعلم وذكر فيه وسيلته الكبرى التى ارتبط بها تاريخ العلم ومسيرته ، وانبثقت منها حركة التأليف والتعليم ونقل العلم من فرد إلى فرد ، ومن أمة إلى أمة ، ومن عصر إلى عصر ، ومن جيل إلى جيل ، ويرجع إليه فضل ذيوعه فى العالـم ، وانتشاره على أوسع نطاق عرف عن أى فضيلة أو حاجة من الحاجات البشرية المعنوية ، وقامت عليـه دنيا المـدارس والجامعات ، ودور العلم والمكتبات .

وكانت كل القرائن التاريخية والعقلية – إذا كان الأمر

بالقرائن والقياسات البشرية ـ تستبعد أن يذكر فى سياق هذا الوحى الأول « القلم » فإن هذا الوحى ينزل على أمى فى أمة أمية وفى بلاد متخلفة ، لم يكن شىء أكثر ندرة وغرابة فيها من هذه القطعة الخشبية التى تسمى « القلم » وقد أصبح لقب العرب الشائع السائر « أميين » •

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (١) •

وحكى القرآن قول اليهود وكانوا مجاورين للعرب فى المدينة عارفين بهم بحكم الجوار والمعايشة : « ليس علينا فى الأميين سبيل » (٢) ، وقد امتاز فى هذه الأمة الرسول ـ المنزل عليه هذا الوحى ـ بالأمية الكاملة ، يقول الله تعالى :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » (٣) •

ويقول : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » (٤) •

ينزل هذا الوحى الأول على النبى الأمى بغار حراء وهو

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٧٥ .
(٣) سورة الشورى الآية ٥٢ .
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

اتصال الأرض بالسماء ، وبالأولى اتصال السماء بالارض ، بعد فترة طالت وامتدت ستة قرون (٥) ، فلا يفتتح الأمـر بالعبادة أو بمعرفة الله تعالى وطاعته أو الدعوة إلى الله ، من الأمور الإيجابية ، أو نبذ الأوثان والأصنام أو نعى على الجاهلية وعاداتها وأعرافها ، من الأمور السلبية ، وكان ذلك فى محله ولكنه يفتتح بكلمة « اقــرأ » .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لـم يعلم » (٦) ، فكان حدثاً عظيما من الأحـداث التاريخية ، يفتح آفاقا جديدة واسعة من تفكير الإنسان وتأمل المفكرين والمؤرخين وهى إشارة بليغة واضـحة إلى أن هـذا النبى الأمى — ﷺ — سيفتتح دوراً جديداً فى تاريخ الإنسانية وفى تاريخ الديانات والرسالات السماوية ، يتسم بالقراءة — فى أوسع معانيها وأعمقها — ويتسم بقيام دولة العلم وبدء عهده الزاهر ، وباقتران الدين بالعلم ، يترافقان ويتعاونان فى الصياغة الإنسانية الجديدة .

ولكن سيكون انطلاق فن القراءة والعلم فى أحضان هذه النبوة باسم الرب الذى خلق هذا الكون وخلق الإنســان ، فيكون مصطبغاً بالإيمان وبالله ومعرفته الصحيحة يشـــق

---

(٥) وهى المدة التى مضت على نبوة سيدنا عيسى وعلى نبينـا عليه الصلاة والسلام .

(٦)سورة العلق الآية ١ ، ٥ .

طريقه إلى الأمام فى ضوئه وتحت هدايته ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » •

عارفاً بحقيقة الإنسان وخلقته فلا يعدو طوره ولا يغتر بفتوحه فى مجال العلم والعقل والصناعة وأسباب تسخير الكون ، فقال : « خلق الإنسان من علق » •

ثم شرف قدر القلم ونوه بقيمته وغنائه ودوره الكبير فى عالم العلم والقراءة والتعليم والتربية ، وهو الذى لم يكن العثور عليه سهلا فى مكة والجزيرة العربية ، فكان خاصاً بعدد محدود جداً (٧) ، لذلك اشتهر القارىء المتعلم فى الجزيرة العربية بكلمة « الكاتب » فقال : « الذى علم بالقلم » •

ثم أشير إلى صلاحية الإنسان للعلم الحديث الأحدث من الحقائق الدينية والكونية والعلوم والصنائع ، والاكتشافات والاختراعات ، وتوسيع آفاق العلم ، وأن مصدر كل ذلك هو التعليم الإلهى وتهيئة الإنسان للعلم المجهول واكتشاف المفقود فقال : « علم الإنسان ما لم يعلم » •

---

(٧) كان من يعرف القراءة والكتابة من قريش ١٧ شخصاً فقط ، كما جاء فى كتاب « العقد الفريد » لمؤلفه ابن عبد ربه ٢٤٢/٤ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٥٧ وذهب بعض الباحثين إلى أن عددهم كان أكثر من هذا ولكنه محدود معدود على كل حال .

هذا أول الوحى النازل على محمد — ﷺ — وفاتحته ، والبداية والعنوان لهما أثر كبير على جميع المراحل التى تلى ، وعلى تعيين الطبيعة التى تسيطر على علم أو دعوة أو مدرسة ، فقد بقى هذا الدين — ولا يزال — مقترناً بالعلم مترافقاً له ، مسايراً لرغبة النوع الإنسانى فى التعلم ، والقدرة على حل القضايا الجديدة التى تعرض للأجيال البشرية والعقل الإنسانى والمدنية الصالحة ، غير متجهم لعلم وغير هياب لعمل العقل .

وهناك ديانات ترى حياتها فى موت العلم وترى إزدهارها وانتصارها فى انهزام العلم ، تمثلها حكاية تقول : إن بعوضة شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت : إن الريح تظلمنا كثيراً وتجور علينا ، فلا بقاء لنا نحن البعوض معها ، فإذا هبت لجأنا إلى الفرار ، فقال سيدنا سليمان : لابد من إحضار المدعى عليه ، ودعا الريح فإذا بالبعوضة قد طارت ، فقال : فكيف نحكم على قضية فى غياب مدعيها ؟ !

وكذلك أصحاب الديانات الكثيرة وفى مقدمتها الديانة البرهمية فى الهند ، وكهنتها وسدنتها ، وقصة الصراع بين الكنيسة النصرانية والعلم فى أوربا مشهورة ، وكتاب درابر الأمريكى : (Conflict between Religion & Science) الصراع بين الدين والعلم من الوثائق التاريخية والكتب المنيرة المليئة بالمعلومات والأضواء ، وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش الدينى العقائدى (Courts of Inquisition) فى أوربا فى القرون الوسطى والاضطهاد الكنسى إلى اثنى عشر مليوناً

(١٢٠٠٠٠٠٠) (٨) ، وهـو ضعف عدد ضـحايا الحـرب العالمية الأولى ، فقد بلغ ستة ملايين وأربع مائة ألف نفس (٦٤٠٠٠٠٠) .

ونزل القرآن وقد شرف قدر العلم ورفع منزلة العلماء إلى درجة لا يوجـد لها مثيـل فى الصحف السـابقة ، وفى الديانات القديمة ، وأضفى على العلم والعلماء نعوتا بلغت به إلى درجة أدنى من درجة الأنبياء وفوق كل درجة مـن درجات البشر ، فحسب القارىء قوله تعالى :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلـم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (٩) ، وقوله لرسوله : « وقل رب زدنى علماً (١٠) وقوله : « قل هـل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمـون (١١) ، وقوله : « يرفـع الله الـذين آمنـوا منكم والـذين أوتوا العلـم درجات (١٢) وقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١٣).

وأما الحديث النبوى فيكفى القارىء منه قوله ـ ﷺ ـ:

---

(٨) John Davenport : Apology for Muhammad & Quran.

(٩) سورة آل عمران الآية ١٨ .

(١٠) سورة طه الآية ١١٤ .

(١١) سورة الزمر الآية ٩ .

(١٢) سورة المجادلة الآية ١١ .

(١٣) سورة فاطر الآية ٢٨ .

« فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (١٤) ، وقوله : « **إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر** » (١٥) .

ومن هذا التنويه بشأن العلم والحث عليه ، انبثق ذلك النشاط ، وبكلمة أصح ، الحماس العلمى والتفانى فى سبيل العلم فى تاريخ الإسلام ، وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التى مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ، والمساحة المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين (١٦) .

وتكفى هنا شهادة لباحث غربى كبير ومؤرخ فرنسى شهير وهو الدكتور « غوستاف لوبون ، يقول فى كتابه المشهور « حضارة العرب » .

---

(١٤) رواه الترمذى قال حديث حسن .
(١٥) رواه أبو داؤد والترمذى .
(١٦) ليرجع إلى معرفة هذه المساحات ولمعرفة التنوع والتفنن فى الموضوعات ، إلى كتب وضعت فى ذكر المؤلفات التى ألفها علماء الإسلام فى عصور وأنحاء مختلفة ، ونذكر على سبيل المثال « كتاب الفهرست » لابن النديم ، و «كشف الظنون » ، للحاج خليفة جلبى ، و « معجم المصنفين » للعلامة محمود حسن التونكى (ستون مجلدا ويحتوى على عشرين ألفا من الصفحات وعلى تراجم أربعين ألفا من المصنفين) و « الثقافة الإسلامية فى الهند » للعلامة السيد عبد الحى الحسنى ، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق و « تاريخ الأدب العربى » لبروكلمان الألمانى ، و « تاريخ التراث العربى » لفؤاد سزكين .

« والإنسان يقضى العجب من الهمة التى أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أمم تساوت هى والعرب فى ذلك فإنك لا تجد أمة فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التى روى « بنيامين التطيلى » المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها فى الإسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة إلخ ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل ما يساعد على البحث العلمى ، وكان للعرب فى أسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان فى مكتبة الخليفة الحكم الثانى بقرطبة ستمائة ألف كتاب منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس كما روى مؤرخوا العرب ، وقد قيل بسبب ذلك إن « شارل الحكيم » لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع فى مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت » (١٧) .

وكان دور البعثة المحمدية والدعوة الإسلامية فى توجيه العلم إلى الهدف الصحيح وحمله على أداء دوره الإيجابى البناء النافع المجدد المنقذ من الحيرة والاضطراب ، والتناقض والارتياب ، أكبر أهمية وأكثر قيمة من دورها فى تنشيط حركة العلم وتوسيعها .

---

(١٧) حضارة العرب ص ٤٣٤ تأليف الدكتور غوستاف لوبون ترجمة الأستاذ عادل زعيتر مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر .

وذلك أن وحدات العلم كانت مبعثرة بل كانت فى أغلب الأحيان متناقضة ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، حتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبية إلحادية ، فكان فى اليونان التى فاقت العالم المعاصر لمدة قرون فى علوم الفلسفة والرياضة ، علماء إما مشركون وإما ملحدون ، وأصبحت علومها ومدارسها الفكرية خطراً على الدين وحجة وقدوة للملحدين .

فكان أكبر حسنات الإسلام أنه دل على الوحدة التى تربط بين وحدات العلم ، وقد تيسر له ذلك لأنه بدأ رحلته فى مجال العلم والمعرفة بداية صحيحة ، بدأها بالإيمان بالله والاستعانة به والاعتماد عليه ، عملا بقوله تعالى لرسوله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وصحة البدايد — فى غالب الأحيان — كفيلة بصحة النهاية .

فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتشف الوحدة التى تربط الوحدات بعضها ببعض ، وهى معرفة الله تبارك وتعالى وذلك الذى مدح الله به عباده المؤمنين ، فقال : « ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (١٨) .

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية — من الظواهر والحوادث والتغيرات — متناقضة مضادة توقع الإنسان فى

---

(١٨) سورة آل عمران — ١٩١ .

حيرة واضطراب ، وقد تؤدى إلى الكفر والإلحاد ، والطعن والاعتراض على الخالق ومدبر الكون ، فدل العلم الإسلامى المؤسس على الإيمان والقرآن على الوحدة التى تجمع بين هذه الوحدات الكونية وهى إرادة الله الغلابة وحكمته الباهرة •

وقد أشار عالم غربى كبير هو « هيرالد هوفدنج » الألمانى إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ودورها الفعال فى حياة الإنسان ومسيرة العلم والأخلاق ، يقول :

« إن فكرة كل دين قائمة على التوحيد ، وهى تقوم على أن علة الوجود لجميع ما فى الكون واحدة — وبغض البصر عن أهمية المشاكل التى تحدث بهذه الفكرة بصورة لازمة — يخلف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً ومهما على الطبيعة الإنسانيّة ، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء فى العالم مرتبطة حسب قانون واحد ، بغض النظر عن الخلافات والتفاصيل ، فيلزم بكون العلة واحدة أن يكون القانون واحداً ، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة فى الكثرة المشاهدة فى العالم فى أذهان الناس ، الفكرة التى كان الانسان غير المثقف بمعزل عنها بتأثير وجود الكثرة فى المظاهر الطبيعية التى كان يتيه ويغوص فيها ، فيفلت من يده حبل الوحدة الذى يربط هذه الكثرة » (١٩)•

(19) History of Modern Philosophy, P. 5.

وبذلك أصبح العلم هادفاً ، نافعاً ، موصلا إلى الله تعالى ، مركزاً جهده على ما ينفع الإنسانية ويسعد المجتمع والمدنية ، وكانت أكبر منه على الفكر الإنسانى والمجهود الإنسانى فقد غير مصير الإنسانية ومجرى الفكر البشرى .

وقد اعترف علماء الغرب بفضل القرآن على العلوم والفكر الإنسانى ، نكتفى هنا بشهادتين :

يقول مارغليوث (G. Margoliouth) الذى عرف بالتحامل على الإسلام ، فى مقدمته لترجمة رادول (J.N. Rodwell).

« إن مما اتفقت عليه كلمة الباحثين أن القرآن يحتل مكانة ممتازة فى الصحف الدينية العظيمة ، بالرغم من أنه أحدث سنا فى هذه الصحف (٢٠) التى صنعت التاريخ ، ولكنه يسبق الجميع فى التأثير المثير للحيرة على الإنسان ، إنه أوجد فكراً إنسانياً جديداً ، وأرسى قواعد مدرسة خلقية متميزة » (٢١).

ويقول Hart Wighischfeld :

« لا داعى إلى الاستغراب إذا قيل إن القرآن ينبوع للعلوم ، إن كل ما حدث عنه القرآن من الأرض ، والحياة الإنسانية ، والتجارة والحرفة ، كان موضع دراسة العلماء

---

(٢٠) يعنى آخرها نزولا .

(٢١) Rew. G. Margoliouth : In Introduction to the Koran By Rev. J.M. Rodwell, London, 1918.

والمفسرين ، فألقوا عليه الأضواء فى كتبهم وتفسيرهم للقرآن ، وفتح ذلك مجالا واسعاً للبحث والتأمل فيها ، تمهدت عن طريقه طرق تقدم العلوم فى المسلمين ، إنه لم ينحصر تأثيره فى العرب ، بل إنه حمل الفلاسفة اليهود على أن يقتفوا آثار العرب فى المسائل الدينية ما بعد الطبيعة ، ولا داعى إلى ذكر ما استفاد علم الكلام المسيحى من بحوث العرب فى الإلهيات » (٢٢) .

---

(٢٢)

Hartwig Hirschfeld : New Researches into Composition and Exegesis of the Quran — London, 1902, P. 9.

٨ ـ استخدام العلم والعقل والانتفاع به حتى فى القضايا الدينية ، والحث على النظر فى الأنفس والآفاق

لا نعرف ديناً من الأديان ولا صحيفة من الصحف السماوية ، دعا إلى استخدام العقل والانتفاع به وإلى التفكير والاستنتاج ، وربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات ، والاعتبار والادكار ، وذم تعطيل ما وهب الله الإنسان من صلاحية التأمل فيما حوله ، والإعراض عن آيات الله فى الأنفس والآفاق ، والبلاد والأمم ، وما مضى من مثلات وعبر فى حياة الأمم ، وما ظهر من نتائج الأعمال والأخلاق ـ على مستوى الأفراد والامم والحكومات والشعوب ـ مثل ما فعله القرآن .

إنه استحث على استخدام الحواس الظاهرة التى من أهمها العين ، والانتفاع بها فى الرؤية الصحيحة حتى يؤدى من البصارة إلى البصيرة ، هذه أولى الخطوات فيقول :

« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامها وأنفسهم أفلا يبصرون » (١) .

(١) سورة السجدة ـ ٢٧ .

وذم تعطيل هذه القوة العظيمة التى هى وسيلة الاهتداء ، فقال :

« فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير والله بصير بما يعملون » (٢) .

ويقول : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أفلا تتفكرون (٣) .

ويقول : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » (٤) ، ويقول : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور » (٥) ، ويقول : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور » (٦) ، ويقول فى نهاية الزجر :

« وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (٧) ، ويثير الغيرة فى أصحاب الأبصار فيقول : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (٨) .

---

(٢) سورة المائدة — ٧١ .
(٣) سورة الأنعام — ٥٠ .
(٤) سورة هود — ٢٤ .
(٥) سورة الرعد — ١٦ .
(٦) سورة فاطر — ١٩ .
(٧) سورة يوسف — ١٠٥ .
(٨) سورة الحشر — ٢ .

أما حث القرآن على استخدام العقل وإثارة الغيرة فى أصحاب العقول ، فقد تكرر فى القرآن كلمة « تعقلون » ، حتى بلغ عدد ما ورد فيها إلى ثلاث وعشرين (٢٣) آية جاء فيهـا : « لعلكم تعقلـون » « أفلا تعقلـون » وقوله : « إن كنتم تعقلون » نذكر على سبيل المثال آيات :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (٩) ، « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » (١٠) ، « وللدار الآخـرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١١) ، « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » (١٢) ، « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » (١٣) ، ويصف أهل جهنم بعدم الانتفاع بهذه الحاسة فيقول : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » (١٤) ، كذلك وردب كلمة « يعقلون » فى مقام المدح أو مقام الإثبات أكثر من عشرين مرة .

كذلك شأن القرآن مع الدعوة إلى التفكير ومدح الذين يتفكرون ، وذم الذين لا يتفكرون ، وقد جاءت هذه الكلمـة إحدى عشرة مرة فى القرآن كقوله تعالى : « الذين يذكرون

---

(٩) سورة البقرة ــ ٢٤٢ .
(١٠) سورة آل عمران ــ ١١٨ .
(١١) سورة الأعراف ــ ١٦٩ .
(١٢) سورة الأنبياء ــ ١٠ .
(١٣) سورة الصافات ــ ١٣٨ .
(١٤) سورة الملك ــ ١٠ .

الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » (١٥) ، « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (١٦) ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١٧) .

وكانت نتيجة ذلك — زيادة على الاهتداء إلى الحقيقة الكبرى ، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله فى هؤلاء المستخدمين للعقل والتفكير على الطريقة الصحيحة ، « ربنا ما خلقت هذا باطلا » (١٨) — ، هذا النشاط الفكرى العالمى فى كل مجال من مجالات العلوم والصنائع والمدنية ، والذى ظهر أثره فى العالم كله ، وكأنما فتحت كوة ومنفذ واسع يدخل منه النور والهواء الطلق ، وكأنما كسر أو فتح ذلك القفل الذى وضعه أعداء الحرية والتفكير السليم أو الممثلون المزورون للديانات القديمة ، على العقل البشرى ، وانتبه العالم من سباته العميق الذى طال قروناً وآلافاً من السنين ، وبدأ يمسح عن عينيه آثار النوم العميق ، ويتقدم بخطى سريعة إلى تدارك ما فاته من التقدم والرقى وتذليل العقبات وإزالة العوائق والحواجز فى سيره الطويل ، يحدث عن هذا الأثر العالمى وعن هذه الهزة العنيفة والرفيقة فى وقت واحد عالم فرنسى كبير ، فيقول جوليفة كستلو Jolivet Castelot فى كتابه « قانون التاريخ » (La Loi De L. Histoire) :

(١٥) سورة آل عمران — ١٩١ .
(١٦) سورة الأعراف — ١٧٦ .
(١٧) سورة الرعد — ٣ .
(١٨) سورة آل عمران — ١٩١ .

« كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول عظيماً ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ، قامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره فى الفنون والآداب ، والشعر والعلوم ، وقبض العرب بأيديهم خلال عدة قرون ، مشعل النور العقلى وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها مساس بالفلسفة ، والفلك ، والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التى استخدموها بقريحة وقادة للغاية ، وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثر ، وليس لنا إلا إبداء الأسف على اضمحلالها » .

ويتقدم فيقول : « ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة ، فإن العمل الذى تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنية مدهشة ، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التى سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً فى القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العالم العربى والآداب والفنون العربية ، وأوربا تدين بالهواء النافع الذى تمتعت به فى تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون

ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق » (١٩) .

ويقول غوستاف لبون (Gustave Lebon) :

ينسب الناس إلى باكون (Francais Bacon) قاعدة التجربة والملاحظة والمنطق الاستقرائى (Inductive Logic) وهما الأصل فى أساس البحث العلمى الحديث ، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هى من مبتدعات العرب .

ويقول Robert Driffault فى كتابه The Marking of Humanity :

« ما من ناحية من نواحى تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير » (٢٠) .

ويقول : « : لم تكن العلوم الطبيعية (التى يرجع فيها الفضل إلى العرب) هى التى أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت فى حياة أوربا تأثيرات كثيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا » (٢١) .

---

(١٩) الإسلام والحضارة العربية ، للاستاذ محمد كرد على ، ج/٢ ، ص/٥٤٣ — ٥٤٤ .

(٢٠) أيضاً ، ص/٢٠٢ .

(٢١) The making of Humanity P. 202.

٩ – وجود أمة تضطلع بمسئولية الوصاية على العالم والحسية على الأخلاق وسلوك الأفراد والأمم

إن مما شهد به التاريخ الإنسانى الطويل وعلم النفس والأخلاق ، أن الغايات السامية والتعاليم الفاضلة والنماذج العلمية الرفيعة ، لا تقوم – وإذا قامت لا تدوم – إلا إذا كانت وراءها جماعة من البشر – وبالأصح أمة من الناس – تحمل دعوتها وترفع رايتها وتجاهد فى سبيلها وتمثلها عملياً .

لذلك نرى أن تعاليم بعض الرسل صلوات الله عليهم – فضلا عن المصلحين ومعلمى الأخلاق وأساتذة الحكمة الكبار – لم تعش زمناً طويلا لعدم وجود أمة تحمل رسالتهم وتتفانى فى سبيلها وتمثلها فى حياتها ، وبمدنيتها وحكوماتها ومجتمعاتها ، فأصبحت الحياة فى المناطق التى بعثوا فيها كماء فائض له درجة واحدة من الارتفاع ، وأصبحت الشعوب والأمم قطعانا من الغنم لا راعى لها .

ولما قضى الله بأن يكون محمد – ﷺ – هو الرسول الأخير وخاتم النبيين لا يكون بعده نبى يبعث ، وكتاب ينزل

من السماء ، أمن البشرية من هذا الخطر ، وبعث مع محمد — ﷺ — أمة بأسرها ، فكانت البعثة المحمدية بعثة مقرونة ، بعثة نبى مرتبطة ببعثة أمة ، فإن الله سبحانه وتعالى يصف أمته بصفات لا تنطبق إلا على مبعوث — من غير نبوة — مأمور من الله فيقول :

« كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس تأمرون بالمعـــروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) •

ويقول : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (٢) •

وقد جاء فى الحديث النبوى نفس التعبير ، فقال عليه الصلاة والسلام لجماعة من الصحابة رضى الله عنه : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (٣) •

وقد كان هذا الشعور بمسئولية البعثة وبمسئولية المأمورية يملأ جوانح الصحابة رضى الله عنهم ، والتابعين لهم بإحسان ، فحين سأل « رستم » قائد قواد الفرس سيدنا « ربعى بن عامر » (٤) ، الذى أرسله القائد العام لجيش المسلمين سيدنا « سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنه على طلب من رستم ،

---

(١) سورة آل عمران — ١١٠ •
(٢) سورة البقرة — ١٤٣ •
(٣) أخرجه البخارى •
(٤) صحابى ، راجع « الإصابة » ج ١ ، ص ٥٠٣ •

فقال له ما الذى جاء بكم ؟ فأجاب بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادةالعباد إلىعبادته وحده،ومن ضيق الدنياإلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٥) .

وهذا هو الشيء الذى أثر فى مصير الإنسانية ، وكانت ــ بالنسبة إلى الناس ــ تجربة جديدة فى تاريخ الديانات وفى تاريخ مصائر الأمم وفى تاريخ الاتجاهات أحدث تحولا فى التاريخ ، لأن واقع العالم الإنسانى الذى كان يعيشه فى القرن السادس المسيحى ــ وهو الشأن فى كل زمان ــ كان أوسع وأسمى من أن يؤثر فيه أفراد صالحون .

إن القرآن يشهد بوجود أفراد صالحين فى اليهود المغضوب عليهم ، فيقول : « ليسوا سواءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم والآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين » (٦) .

لكن لم يكن لهم أثر فى المجتمع الإنسانى وفى المسيرة الإنسانية ، لأنهم أفراد ، والأمم لا تحسب للأفراد حساباً ، فما زال ولا يزال فى كل زمان ومكان أفراد صالحون يتميزون عن سائر الناس فى بعض أعمالهم وأخلاقهم وعباداتهم ، ولكن الفراغ الموجود والأزمة الموجودة على مستوى الأمم

---

(٥) البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٣٩ .
(٦) سورة آل عمران ــ ١١٣ ــ ١١٤ .

والشعوب وعلى مستوى المدنية والاجتماع ، لا تملأ إلا إذا كان الصلاح ، وإذا كانت القدوة الحسنة ، وإذا كانت النماذج العملية ، على مستوى أمة ، وعلى مستوى مجتمع إنسانى يمثل التعاليم النبوية السامية والمبادىء والأخلاق الفاضلة والسلوك الفردى والاجتماعى المثالى ، على صعيد الحكومة والسياسة ، والتجارة والمعاملات والحياة المنزلية والاجتماعية ، والمعاملة مع الأفراد والجماعات ، والشعوب والحكومات ، وفى حالة الرضا والغضب ، وفى الصلح وساحة الحرب ، وفى الفقر والرخاء ، وكانت الطابع العام للجماعة والأمة ، وسمتها البارزة .

وكذلك كانت الصحابة رضى الله عنهم الذين نشأوا فى أحضان النبوة وتخرجوا فى مدرسة الإيمان والقرآن ، وقد أحسن أحد علماء الغرب المنصفين المطلعين على تاريخ الأمم والمدنيات تصوير الجيل الذى كان غرس النبوة وزرع القرآن ، وأحسن الإشارة إلى سمتهم البارزة المشتركة ، يقول الفاضل

الألمانى كاتانى (Caetani) فى كتابه « سنين الإسلام » :

« لقد كان هؤلاء الصحابة (الكرام) ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقى ودعاة الإسلام فى المستقبل ، وحملة تعاليم محمد — ﷺ — التى بلغها إلى أهل التقوى والورع ، لقد رفع بهم اتصالهم المستمر برسول الله وحبهم الخالص له ، إلى عالم من الفكر والعواطف لم يشهد محيط أسمى منه وأرقى مدنية واجتماعا ، والواقع أن هؤلاء الصحابة كان قد حدثت

فيهم تحولات ذات قيمة كبيرة من كل زاوية ، وأثبتوا فيما بعد فى أصعب مناسبات الحروب أن مبادىء محمد — ﷺ — إنما بذرت فى أخصب أرض وأنبتت نباتاً حسناً ، وذلك عن طريق أناس ذوى كفاءات عالية جداً ، كانوا حفظة الصحيفة المقدسة وأمناءها وكانوا محافظين على كل ما تلقوه من رسول الله من كلام أو أمر ، لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلامى وعلماءه ومحدثيه الأولين » (٧) .

وقد نيطت بهذه الأمة الإسلامية مسئولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، ومسئولية القيام بالقسط والشهادة لله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعتبار نفسها أمة تسأل يوم القيامة عن مدى قيامها بهذا الواجب وتحاسب على تفريطها فى ذلك وانشغالها بنفسها ، فيقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » (٨) .

ويحذر من تفريطها فى أداء واجبها وما يجر ذلك على

---

(٧)
Caetani (Annalidell Islam) vol. ii, P. 429.
T.W. Arnold : Preaching of Islam, London, 1935.

(٨) سورة المائدة : ٨ .

الإنسانية من الشقاء والبلاء ، وانتشار الفتنة والفساد ، فيقول للمجموعة الصغيرة التى كان لا يتجاوز عدد أفرادها بضع مآت فى حياة المدينة الأولى ، وقد أمرت بالتآخى وتكوين الخلية الإسلامية القائمة على أساس العقيدة والدعوة .

« إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » (٩) .

فكيف بالأمة الإسلامية التى تملأ الأرض وتملك حكومات كبيرة وطاقات إنسانية غنية ، إذا أخلت بمركزها القيادى الدعوى ، أو بواجبها الاجتماعى ، وهو الحسبة على الأخلاق والميول والاتجاهات ونصر المظلوم ومنع الظالم من الظلم ؟

ويذكر القرآن هذه الأمة بهذا المركز القيادى الدعوى ، والواجب الإصلاحى وبمسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، محيلا ذلك على الأمم الماضية ، مثيراً للشعور وبالمسئولية فى الأمة (١٠) فى الحاضر ، فيقول :

---

(٩) سورة الأنفال — ٧٣ .

(١٠) وقد أحسن شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بيان هذه الحقيقة فى قصيدته التى عنوانها : « برلمان إبليس » فذكر على لسان رئيس البرلمان (إبليس) الخطر يتهدد النظام الإبليسى بوجود المسلم ، إذا استيقظ وشعر بمسئوليته للعالم والأمم : فيقول : « اضربوا على آذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخوانى ! عن الجد والعمل ، حتى يخسر الرهان فى العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبـــع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (١١) .

وهذا يستوجب أن يكون عمل التأثـــير فى الحضـــارة الإنسانية واستعراضها بين آونة وأخرى من جديد ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة مســـتمراً .

عبدا لغيره ، ويهجر هذا العالم ، ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره ، زهدا فيه واستخفافا نخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا ! لو انتبهت هذه الأمة التى يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعســـه » ، (روائع إقبال ، ص ١٢٥ — ١٢٦) .

(١١) سورة هود — ١١٦ .

١٠ ـ الوحدة العقائدية الحضارية العالمية

وأخيرا لا آخرا ، تلك الوحدة العالمية لم يشهد التاريخ مثلها فى السعة والعمق والمتانة فى أدوار الحضـارة البشرية والمجتمع الإنسـانى المختلفة ، وهى التى قامت ـ ولا تزال قائمة ـ على أساس وحدة العقيدة ـ وهى عقيدة التوحيد ، والإيمان بنبوة محمد ـ ﷺ ـ والحياة بعد الموت ـ ووحدة النظرة إلى الظواهر الكونية والقدرة الإلهية وتعليلها وتقييم ماهية الأشياء وقيمتها على أساس الإيمان بالله وغاية الخلق والتكوين وكون هذه الحياة محدودة عارضـة ، والإيمـان بالقيم والمثل التى دعا إليها الإسلام ، ومثلتها أسوة الرسول ـ ﷺ ـ وحياة الصحابة والجيل المثالى الأول على تفاوت وتنوع فى التمسك بها ، والاستقامة عليها ، تنوع تقتضـيه الفطرة الإنسانية ، واختـلاف العصر والبيئـة والتربية ، والمؤثرات الخارجية ، ولكن القدر المشترك بـين المجتمعات الإسلامية فى كل عصر بعد ظهور الإسلام ، أبرز شكلا وأكبر حجما وأعمق جذوراً من كل قدر مشترك بين أجزاء أمة واحدة وأتباع ديانة واحدة •

ثم الوحدة الحضارية ـ إلى حد بعيد ـ على أساس الأحكام الشرعية أو التعاليـم الخلقية ، على اختـلاف فى المستويات ومدى العمل بهذه الأحكام والتعاليم ، اختلاف لا

مفر منه مع اختلاف طبائع الشعوب التى دانت بالإسلام وطبائع البلاد والعصور ، ونظم الحكم — ولكنها حضارة تمتاز بالطابع الإسلامى الخاص ، فهى حضارة تتميز فى العقيدة بالتوحيد ، فى الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها ، وفى دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله — إذا قورنت بالحضارات الأخرى — والحياء والتواضع ، وفى ميدان الكفاح بالسعى للآخرة والجهاد لله ، وفى الحياة الفردية والمنزلية بالعناية البارزة بـ « الطهارة » — وهى أخص من « النظافة » التى تلتقى عليها الحضارات الراقية والمجتمعات السليمة — والذبح والتزكية فى لحوم الحيوانات والطيور •

وأسماء المسلمين فى مختلف البلاد — على تباعدها وتباينها فى اللغات والثقافات — متميزة دائماً ، عربية غالباً ، مستعارة من أسماء الأنبياء والصاحبة ، وأهل البيت والصالحين من السلف يتجلى فيها عقيدة التوحيد أو مفهوم العبودية والحمد وتكثر التسمية بمحمد وأحمد حباً وتيمناً •

سمات الوحدة البارزة :

وتتجلى هذه الوحدة الدينية والحضارية فى وحدة الفرائض والواجبات وعدد من الشعائر الدينية والمناسبات الاجتماعية ، فتقام الصلوات الخمس فى أوقاتها (على توقيت البلاد المختلفة) وتصلى الصلوات جماعة بركعات معينة فى الجوامع والمساجد ، ويستطيع كل مسلم من أى بلد كان ،

وأى لغة يتكلم بها ، أن يحضر هذه الصلوات أو يؤم الجماعة (إذا أراد المصلون) من غير أن يستعين بدليل وتعليمات محلية ، وصلاة الجمعة تقام باهتمام بارز •

والقرآن هو الكتاب السماوى الفريد الذى يتلى ويحفظ ويرتل فى كل الأمصار (١) ، والأذان يدوى من جميع المساجد بصيغة واحدة ، ورمضان هو شهر الصوم فى كل العالم الإسلامى مهما اختلفت الفصول والطقس والمناخات ، ويحتفل المسلمون بالعيدين : عيد الفطر وعيد الأضحى ، ويصلون ركعتين شكراً لله تعالى ، بعدهما الخطبة يحضرهما المسلمون على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم •

ويؤم الناس مكة للحج من كل صوب بعيد وفج عميق ، وذلك من غير انقطاع فى التاريخ الإسلامى الطويل ، ومن غير خضوع للتقلبات السياسية ، والتطورات الاقتصادية والاجتماعية ، وتحية المسلمين فى كل بلد سلام (وهو السلام عليكم) وكل ذلك طراز من الوحدة لا يوجد له مثيل فى الأمم والديانات والمجتمعات •

وقد شعر بهذه الوحدة الفريدة ونوه بها عدد من فضلاء الغرب ، وأصحاب الفكر والأقلام ، نكتفى هنا بشهادتين :

---

(١) اعتراف الموسوعة البريطانية Encyclobea?ia Britaniea بأن القرآن « هو أوسع الكتب تلاوة على وجه الأرض » (راجع دائرة المعارف البريطانية مادة) Mohammad.

يقول « هملتن جب » :

« إن الإسلام تصور منسق ظهر فى أشكال سياسية واجتماعية ، ووحدة دينية ، وهذا التصور يحيط بمساحة واسعة للزمان والمكان ، وقد برزت خصائصه المختلفة فى مناطق وعهود مختلفة بقدر احتكاكه بمختلف القوى الاجتماعية والسياسية المحلية ، فمثلا كانت أسبانا فى شمال غربى أفريقيا فى العهود الوسطى مرتبطة بمهد الإسلام فى غرب آسيا ، وكانت ثقافتها جزءاً من ثقافة هذا المركز الإسلامى ، ولكنها كانت تتميز فى مجالات مختلفة وتحمل خصائص كان لها بدورها الأثر على غرب آسيا ، كذلك كانت المناطق الرئيسية الأخرى المكتفية بذاتها كشبه القارة الهندية ، وأندونيسيا ، والمناطق الصحراوية فى جنوب روسيا إلى حدود الصين تحمل خصائص ومزايا إقليمية ، لكنها تحتفظ بالطابع الإسلامى المميز » (٢) .

ويقول ولفرد « كانتويل اسمث » :

« كان انتصار المسلمين انتصاراً داخلياً لدينهم ، فإنهم لم يحققوا النصر فى ميدان القتال وحده ، ولم يؤثروا على جوانب مختلفة فى الحياة فحسب ، بل إنهم حققوا النصر فى توجيه الحياة بصورة عامة توجيها جديداً ، وبطابع خاص ،

---

(٢) Hamilton A. R. Gibb : Studies of Civilization of Islam, London, 1960, P. 3.

وهو ما يعرف بالحضارة ، وقد ساهمت فى تكوين هذه الحضارة الإسلامية عوامل متعددة كالعربية واليونانية والحضارة السامية للشرق الأوسط ، وإيران الساسانية ، والعناصر الهندية ، ولكن تجلت عبقرية المسلمين فى تنسيق هذه العوامل المختلفة وصهرها فى بوتقة جديدة وإخضاعها لمنهج متجانس للحياة ، بدون أن تفقد هذه العوامل خصائصها الذاتية ، وعلى العكس فإنها تطورت تطوراً مطرداً ، كان ذلك هو الإسلام الذى قام بتنمية هذه العوامل وإكمالها ، وهيأ لها قوة للبقاء ، إنه منح كل جانب من جوانب الحياة طابعاً إسلامياً مهماً مهما كان أصله وعناصره التركيبية ، وهيأ المنهج الإسلامى للحياة والمجتمع وحدة وقوة ، وكان للقانون الإسلامى دور جوهرى فى تكوين هذه القوة الموحدة ، وهو الذى قام بتنسيق جميع شعب الحياة من العبادة إلى الملكية والحكم بتياره الجارف المعين ، فإن القانون الإسلامى كان قوة موحدة تربط المجتمع الإسلامى من « قرطبة » إلى « ملتان » ، وهو الذى هيأ لأفراد المجتمع الإسلامى وحدة ، وجعل سائر أعمال الحياة مجدية وهادفة بطبعها بالطابع السماوى ، ومنح الزمان وحدة تجعل المجتمع نامياً ممتداً ، فقد كان الملوك والسلاطين يتناوبون وتقوم حكومات وتسقط حكومات لكن دورها فى توجيه الحياة الإجتماعية فى الأرض حسب التعاليم الربانية كان هامشياً وجانبياً » (٣) .

(٣)

Welfred Cantwell Smith : Islam in Modern History, New York, 1957, PP. 36-37.

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته وصبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الإيمانى ، وكل ما عارض ذلك من عصبية قومية وحمية جاهلية ، وحرب عنصرية ونهامة مادية ، واستهتار خلقى أو فوضوية اجتماعية ، فهو شيء طارئ عليها ، وافد أو مستورد من الخارج ، أو من رواسب البيئات والمجتمعات التى انتقل منها العنصر الإسلامى ، أو بسبب ضعف الثقافة الإسلامية وقلة الاشتغال بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، ومصادر الإسلام الأصيلة الأولى ، فى هذه البلاد .

سر نجاح الجهود الإصلاحية والتجديدية فى تاريخ الإسلام :

ولذلك استمرت جهود الإصلاح والتجديد ومحاربة الفساد ، والبدع وآثار الجاهلية فى تاريخ الشعوب والبلاد الإسلامية استمراراً لم يعرف مثيلها فى تاريخ الأمم والديانات غير الإسلامية ، وكتب لها من النجاح والانتصار ما لم يعرف لمحاولات الإصلاح والتقويم فى تاريخ أمم وديانات أخرى (٤) .

وذلك لمطابقة هذه الجهود لجوهر هذه الأمة وروحها ونفسيتها ، وتعبيرها عن الأسس والمبادئ التى قام عليها كيان هذه الأمة وانبثق عنها تاريخها وامتدادها .

---

(٤) راجع مقدمة الجزء الأول من سلسلة كتاب « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » واقرأ أمثلة هذا النجاح فى أجزائها الأربعة .

عمل التأثير فى الحضارة الإنسانية

يجب أن يدوم ويستمر

وبعد ما شرحناه من عطاء الإسلام الحضارى وما أتحف به الحضارة الانسانية من منح ومواهب ، وما حققه من نجاح وانتصار فى إنقاذ الحضارة البشرية من الانهيار والانتحار ، ومكنها من التقدم والازدهار ، لابد من تقرير حقيقة تاريخية خالدة ، وهى أن عمل التأثير فى الحضارة الإنسانية واستعراضها بعد آونة وأخرى من جديد ، وتطعيمها بالقديم الصالح والجديد النافع ، والحيلولة بينها وبين عناصر التدمير والإبادة والاتجاهات المفسدة الهدامة يجب أن يدوم ويستمر .

وذلك لسببين : السبب الأول أن الأمم خاضعة لعوامل جديدة من الإصلاح والإفساد ، والحياة متحركة متطورة لا تعرف الوقوف والركود ، فلابد من مراقبتها حينا بعد حين وسد حاجاتها المتجددة ، وقد جدت دعوات وفلسفات مفسدة هدامة فى العهد الأخير الذى انسحبت فيه الأمة الإسلامية مع الأسف ، من ميدان قيادة البشرية وانطوت على نفسها .

والسبب الثانى أن الأمة الإسلامية هى أمة الرسالة

الأخيرة وأمة الخلود ، وأمل البشرية ، فلابد أن تظـل حاملة لرسالتها ، قائمة بدورها فى قيادة الركب البشرى والوصاية على العالم ، والحسبة على العقائد والأخلاق وعلاقة الإنسان بالإنسان ، والأمة بالأمة والامم لا تعيش بالتاريخ ولا بما مثلته من دور فى الزمن الماضى ، وما حققته من نجاح وانتصار فى عهد سابق ، إنما تعيش الأمم بالجهاد المتواصل ، والنشاط الدائم ، والشعور بالمسئولية المســتمر ، والمخاطرة بالنفس والنفيس فى كل زمان ، والجدة والابتكار ، وإنتاج المفيـد الجديد ، الصالح المزيد ، فإذا انطـوت على نفسها ، وتنازلت عن منصبها ، طويت من سجل التاريخ وتناساها الـزمان ، فيجب أن تنهض الأمـة الإسـلامية من جديد بمسـئوليتها الدعوية الحضارية ، التوجيهية القيادية ، مرة ثانية .

وحقيقة علمية تاريخية أخرى ، وهى أن الأمة الإسلامية لا تستطيع أن تقوم بدور التأثير فى الحضـارة الإنسـانية وتوجيهها ، إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارة الأجنبية ، تغرف من بحـرها وتغوص فى موجتهـا إلى الآذان ، إنهـا لا تستطيع أن تسترعى انتباها ، فضلا أن تحمل الشـعوب الأخرى على تقليدها ، إلا إذا كانت مؤمنة عميقة الإيمـان بأن حضارتها مستقلة ذات شخصية خاصة ، ربانية سماوية ، صالحة لكل زمان ومكان ، قائمة على أسس متينة ، مستفادة من الكتاب والسنة ، منبثقة من الهدايات الربانية والتعاليم النبوية ، للطهارة والعفة فيها تصور خاص ، فليست الطهارة فيها مرادفة لكلمة « النظافة » وليست العفة فيها يكفى فيها

الابتعاد عن الجنايات الخلقية فحسب ، بل هى أوسع معنى وأكثر شمولا واحتواءا ، وأن حياتها لا تنسجم مع الحضارة الغربية التى نشأت واختمرت تحت ضغط عوامل تاريخية خاصة وفى بيئة كانت تتحكم فيها المادية ويسود عليها — فى فترات كثيرة وطويلة — العداء للدين ، والثورة على الأخلاق والقيم ، وكما يقول أحد خبراء هذه الحضارة وتاريخها (الدكتور العلامة محمد إقبال) بإيجاز : « إن روح هذه المدنية (الغربية) ما عادت عفيفة طاهرة » (١) .

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات ، وما وصل إليه العلم الحديث ، وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الإسراف والتبذير ، والإغراق فى المظاهر الخارجية ، إذا وفقت الحكومات والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدنى المستقل ، البعيد عن التقليد الأعمى ، والارتجالية ومركب النقص ، وإذا توفر عندها الذكاء والأصالة ، والإيمان بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية التى تنبثق عنها وتقوم عليها ، والاعتداد بشخصيتها .

---

(١) ليراجع للتفصيل « أهمية الحضارة الإسلامية والحاجة إليها » فى كتاب « العقيدة والعبادة والسلوك » ص /١٩٨ — ١٩٩ .

(نبى رحمة للعالمين ودين رحمة للإنسانية)

ونختم هــذا البحث التاريخى والتحليلى والاستعراض العالمى الهادف ــ بعــد البعثة المحمــدية ــ على صــاحبها الصلاة والسلام ــ بما جاء فى آخر كتابنا « السيرة النبوية »(١) ليكون مسك الختام للبحث .

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبى ــ ﷺ ــ وبفضل تلك التعاليم السامية ، كما يتغير الطقس ، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وخريف ، وسموم وحميم ، إلى فصل كلــه ربيع وأزهار ، وجنات تجــرى من تحتها الأنهار ، وتغــيرت طباع الناس ، وأشرقت القلوب بنور ربها ، وعم الإقبال على الله ، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه ، وذوق لــم يجربه ، وهيام لم يعرفه من قبــل .

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهــامدة ، بحرارة الإيمان وقوة الحنان ، واستضاءت العقــول بنور جديد ، وسكرت النفوس بنشوة جديدة ، وخرجت الإنسانية أفواجاً تطلب الطريق الصحيح ومحلهــا الرفيع ، وتحن إلى مكانتها السامية العالية ، فلا ترى أمة من الأمم ، وبلداً من البلاد ، إلا وهو يريد السباق فى هذا المضمار ، ويتنافس فيه ،

---

(١) دار الشروق جدة الطبعة الرابعة .

فما ترى العرب والعجم ، ومصر والشام ، وتركستان وإيران ، والعراق وخراسان ، وشمال إفريقية ، والأندلس وبلادنا الهند وجزائر شرق الهند ، إلا سكارى هذا الحب العلوى ، والفيض السماوى ، وعشاق هذا الهدف السامى ، وفقراء على هذا الباب العالى •

كان يبدو أن الإنسانية أفاقت واستيقظت ، وفتحت عيونها بعد سبات عميق طويل ، دام قروناً طويلة ، فأرادت أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها ، وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين ، مجاهدين مصلحين ، مربيين عارفين بالله ، متحرقين لخلق الله ، باذلين نفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية ، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كل جانب ، رجال تحسدهم الملائكة ، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة ، وأذكوا شعلة الحب الإلهى ، وفجروا أنهار العلوم والآداب ، والحكم والمعارف ، وفتحوا ينبوعاً فياضاً ، متدفقاً من العلم والعرفان ، والإيمان والحنان ، وأنشأوا فى نفوس البشر مقتاً جديداً للظلم والجور ، والعدوان والبغضاء ولقنوا الشعوب المضطهدة المهانة الذليلة دروس المساواة ، وضموا المنبوذين والمهجورين ، والمساكين الذين لفظهم المجتمع ، وطردهم أهلهم وعشيرتهم ، إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان ، إنك تجد آثارهم ، وتلمس آياتهم على كل جزء من أجزاء البسيطة كمواقع القطر لا يخلو منها بيت وبر ولا مدر •

وانظر فى جوهر أعمالهم وكيفيتها (Qualify) فضلا عن كميتها (Quantity) وشاهد سمو أفكارهم ، وتحليقها فى

أجواء وآفاق رفيعة ، وانظر شعورهم المرهف ، وروحهم اللطيفة الوادعة الرقيقة ، وذكاءهم الوقاد ، وطبعهم السليم ، وكيف كانوا يتوجعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة ، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب فى نار الأسى والإشفاق ، والعطف على الخلق ، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه ، كيف كانوا يقعون فى المهالك ، ويرحبون بالخسائر لانقاذ الناس ، ودفع البلاء عنهم ، كيف كان حكامهم ، وولاة أمورهم ، يصرفون الأمور ، ويشعرون بالمسئولية ، يعسون بالليل ويترابطون على الثغر ، وكيف كان الشعب منسجماً معهم ، مطيعاً لأوامرهم .

واقرأ — أيضاً — أخبار عبادتهم ، وزهدهم ، وحالتهم فى الدعاء ، ومكارم أخلاقهم وشهادتهم على نفوسهم واحتسابهم لها ، وحبهم للصغار ، والضعفاء ، ولين قلوبهم مع الإخوان والأصدقاء ، وكرمهم وسماحهم ، وعفوهم وصفحهم عن الأعداء سوف ترى أن أحلام الشعراء والأدباء ، وخيالهم الخصيب ، وقريحتهم الفياضة ، لا تصل إلى تلك القمة العالية التى وصل إليها هؤلاء فى عالم الحقيقة والواقع ، ولولا تواتر ما جاء فى هذا الباب واستفاضته ، ولولا شهادات التاريخ الموثوق بها ، بدت هذه الأخبار كقصص وأساطير نسجها الخيال .

إن هذا الانقلاب العظيم ، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمد — ﷺ — ومأثرة من مآثر بعثته ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التى عمت الأمكنة كلها والأزمنة كلها .

وصدق الله العظيم

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

فهرس المراجع العربية

١ ــ القرآن الكريم :
كتب الحديث :

٢ ــ الجامع الصحيح : للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخـــارى •

٣ ــ الجامع الصحيح : للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيرى النيسابورى •

٤ ــ الجامع الترمذى : للإمام أبى داؤد سليمان بن الأشعث السجتانى •

٥ ــ السنن الكبرى للبيهقى : للعلامة أبى بكر أحمـــد بن الحسين البيهقى •

٦ ــ كنز العمال : للعلامة علاء الدين المتقى بن حسام الدين البرهانفورى •

٧ ــ الإسلام والحضارة العربية : محمد كرد على •

٨ ــ أعلام النساء العربية والإسلام : عمر رضا كحالة •

٩ ــ البداية والنهاية : العلامة الحافظ عماد الدين بن كثير •

١٠ـ تاريخ أخلاق أوربا : ليكى •

١١ـ تاريخ التراث العربى : فؤاد سزكين •

١٢ـ تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ، طبع دار المعارف ـ القاهرة •

١٣ـ تاريخ الصين : جيمس كاركرن •

١٤ـ الثقافة الإسلامية فى الهند : العلامة السيد عبد الحى الحسنى •

١٥ـ حضارة العرب : غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعتر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى •

١٦ـ رجال الفكر والدعوة فى الإسلام : أبو الحسن على الندوى ، طبع دار القلم ـ الكويت •

١٧ـ روائع إقبال : أبو الحسن الندوى ، طبع دار القلم بالكويت •

١٨ـ سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها : العلامة السيد سليمان الندوى •

١٩ـ سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ابن الجوزى •

٢٠ـ ضحى الإسلام : للدكتور أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية •

٢١ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه .

٢٢ـ العقيدة والعبادة والسلوك : أبو الحسن الندوى ، المجمع الإسلامى العلمى لكهنؤ .

٢٣ـ فتوح البلدان : العلامة أحمد بن يحيى بن جابر الشهير بالبلاذرى .

٢٤ـ الفهرست : ابن النديم .

٢٥ـ كشف الظنون : الحاج خليفة جلبى .

٢٦ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : أبو الحسن الندوى دار القلم ـ الكويت .

٢٧ـ المرأة بين الفقه والقانون : الدكتور مصطفى السباعى .

٢٨ـ المرأة فى القرآن : للأستاذ عباس محمود العقاد .

٢٩ـ معجم المصنفين : محمود حسن التونكى .

٣٠ـ مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية فى مصر .

٣١ـ منوسمرتى .

٣٢ـ منو شاسترى .

BIBLIOGRAPHY

1. Annie Besant Mrs. : The Life and Teachings of Mohammad, Madras, 1932.
2. Arnold, T.W. : Preaching of Islam, London, 1935.
3. Barith, Religion of India.
4. Briffault, Robert : The Making of Humanity.
5. Caetani Cannalideli : Islam, Vol. II.
6. Coulsen, N.L. : Islamic Surveys, The History of Islamic Law (Edinburg), 1971.
7. Draper John William : History of Conflict between Religion anh Science, London, 1910.
8. Dutt. R.C. : Ancient India (191), Vol. III.
9. Devenport, John : Apology for Muhammad and Quran, London, 1860.
10. Encyclopeadia Britannica, (1927).
11. Ernest De Bunsen : Islam of True Christianity, London. 1889.
12. Gibb, H.A.R. : Whither Islam, London 1932.
13. Haine's Christianity and Islam in Spain.
14. Hamilton, A.R. Gibb, : Studies on the Civilization of Islam, London, 1960.
15. Hartwing Hirschfeld : New Researches into the Composition and Exegesis of the Quran, London (1902).

16. Jayswal, Manu and Yajnaval.

17. J.M. Rodwell, Rev. G. Margoliouth : In Introduction to The Koran.

18. Jolivet Castelot : La loi De l'Histoire.

19. Harold Hofiding : History of Modern Philosophy.

20. Lawrence, E. Browne : The Prospects of Islam, London (1949).

21. Machauliffe : The Sikh Religion.

22. Malley, L.S.S.O., Popular Hinduism : The Religion of Masses, Cambridge, (1935).

23. Naidu, Sarojini : Speeches anh Writings, Madras (1918).

24. Nehru, Jawahirlal : Discovery of India, Calcutta, 1949.

25. Panikhar K.M.A., : A Survey of Indian History.

26. Seva Ram Singh : Life of Guru Nanak.

27. Smith, Welfred Cantwel : Islam in Modern History, New York (1953).

28. Tarachand, Dr. : Society and State in the Mughat Period, Delhi (1941).

29. Tarachand, Dr. : Influence of Islam on Indian Culture.

30. Toyanbee, A.J. : Civilization on Trial, New York (1948).

31. Victor Chopart : The Roman World.

32. William L. Langer : An Encyclopadia of Wold History,

الفهرس

الموضــــــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٨٦/٢٦٢٥

الترقيم الدولى ٩-٦٢-١٤٣٠-٩٧٧

هـذا الكتـاب

بعد ظهور الإسلام صارت طباع الناس وعقولهم تتأثر به من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، وأخذت مبادىء الإسلام وحقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس وتتغلغل فى الأحشاء ، وتغيّرت قيمة الأشياء فى حياة الناس .

وصارت الجاهلية حركة رجعيّة كان من الجمود والغباوة المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقيا عصريا كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه ، وكانت الأمم تدنو رويداً رويداً إلى الإسلام ، يظهر ذلك فى فلسفتهم وفى دينهم وفى مدنيتهم ، وتنم عنه الحركات الإصلاحية التى ظهرت فيهم حتى بعد تخلف المسلمين .

ولقد آن الأوان لصحوة إسلامية شاملة تخلص الإنسانية من آلامها وتقودها - على هدى من روح الإسلام - نحو بعث جديد ، يعمر به الكون وتسعد البشرية .

و « دار الصحوة » وهى تقدّم هذا الكتاب لقارئها العزيز تأمل أن تضع به لبنة فى صرح الصحوة الإسلامية الشامخ ..

وعلى الله قصد السبيل ،

دار الصحوة

حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين

شارع جمال عبد الناصر

القاهرة